أثر المرض في شعر ابن الرومي
قراءة ثانية

د . محمد محمود عبد الحميد أبو علي
قسم اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية وآدابها – كلية الآداب – جامعة دمنهور

التَّقْدِيم :

عَرَفْتُ شُـــذُوذَ ابن الرومي ، واختلاف أطواره ، واختلال أعصـــابه مِمَّا كَتَبَهُ وكُتِبَ عنه ، وقَرَأْتُ ديوانَه فوجدتُ ذلك واضـــحًا جليًّا في شـــعره ؛ فأردتُ أن أُبَيِّنَ الأمراض التي أُصـــيب بها ، وأثرها في شـعره ؛ لذا جعلته موضـوعًا لهذا البحث ، الذي اعتمدتُ فيه على ديوانه بأجزائه السـتة ؛ لأنه ثمرة أنتجتها نفسـيته المعقدة المريضـة ؛ فقد ظهر أثر مرضـه – باختلاف أنواعه – بشـكلٍ واضـح في ثنايا شـعره ، ومِنْ ثَمَّ حاولتُ فحص أشـعاره فحصًـا دقيقًا باطنيًّا لفهم نفسـيته وعُقَده وأمراضه .

واعتمدتُ أيضًا على ما كُتِبَ عن النفس البشرية بشكل عام ، وما قد تُصَاب به من أمراض نفسية أو جسدية .

وقد انتهيتُ في بحثي هذا إلى أن هناك علاقة وثيقة بين إبداع ابن الرومي الفني ومرضـــه النفسـي والجسـدي ، وحاولتُ كَشْـفَ هذه العلاقة في الفصـل الأخير . وكان لا بُدَّ أن أتناول بدايةً الأمراض التي أُصِيبَ بها الرجل ؛ فَقَسَّمْتُ بحثي إلى :

توطئة ، وخمســـة مباحث ، وخاتمة . تكلمتُ في التوطئة عن التلقائية الصـــريحة التي جُبِلَ عليها ، وقد ساعدتني كثيرًا في معرفة أخباره ؛ فكان ديوانه بمثابة ترجمة صريحة واضحة له .

ولأهمية النشأة لكل ناقد نفسي كان لا بد أن أناقش في المبحث الأول ترجمة لابن الرومي : (نَسَـبُه ، أسـرته ، المصـائب التي اُبْتُلِيَ بها ، دينه ومعتقداته ، مذهبه ، إيمانه ، موته) ؛ ليكون مثل هذا المبحث تكأة يمكن الاعتماد عليها في تفسير أمراضـه أولاً ، وبعض الخصـائص الفنية في شعره ثانيًا كتكرار المعاني ، ومسخ المهجوين ، والإفحاش في الهجاء .

وتوقفت في المبحث الثاني عند الأمراض الجســـدية التي أُصِـــيب بها ، والأمراض (النفسجسمية) .

وبينتُ في المبحث الثالث الأمراض النفسـية التي أُصِـيب بها . وتناولت في المبحث الرابع علاقة الهجاء بأمراض ابن الرومي ، ثُمَّ كان المبحث الخامس والأخير عن أثر أمراض ابن الرومي في شعره عامة . وقد استشهدتُ على ما ذهبتُ إليه بنماذج من شعره .

وقد اتَّبَعْتُ في هذه الدراســـة منهجًا تكامليًّا ، اعتمدتُ فيه على معطيات الاتجاه التاريخي ، والاتجاه النفسي ، والاتجاه الفني .

وقد سبقني إلى ذلك دراسات لها قيمتها ، منها : كتاب العقاد (ابن الرومي ؛ حياته من شعره) ، وكتاب المازني (حصاد الهشيم) ، وكتاب علي شلق (ابن الرومي في الصورة والوجود) ، وكتاب صالح اليظي (أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي) . إلا أنني أستطعتُ – بفضل الله – معتمدًا على قراءة ثانية منتجة متحاورة مع كل القراءات الأخرى إضـــافة لمحات تُعَدُّ جديدة في هذا المجال ، منها ما يخص معتقد الشـاعر ، وتفصـيل أمراضـه ومناقشـتها ، وتحديد أعراضـها من اعترافاته الشعرية الشبيهة – إن جاز التعبير – بالاعترافات السريرية للمرضى النفسيين .

كذلك مناقشـة أمراضـه الجسـدية ، وسـبب موته شـبه اليقيني من وجهة نظري ، فضـلاً عن بيان إجادته في السـخرية ، وأسـباب تلك الإجادة التي ترجع لأصـوله اليونانية خاصـةً ما يتعلق بجانب المسخ في شعره .

ثم بيان أســـباب تكراره في المعاني التي ســـماها القدماء التوليد ، إلى غير ذلك من نتائج جاءت في الخاتمة التي بَيَّنْتُ فيها تفصيلاً كل ما توصلتُ إليه من نتائج .

التَّـوْطِئَة :

لقد أغفل بعض المترجمين ابن الرومي ، فكثيرٌ منهم لم يترجم له ، وكان ســـبب ذلك إمَّا خوفهم من نحســه ، أو خوفهم من لسـانه ، " وما نَعْرِفُ رجلاً أصـابه ما أصـاب ابن الرومي ، ولا شاعرًا تهاون به الناس حيًّا وميتًا وتناسوا ما يجب له إلا هو "[1] .

فقد ظُلِمَ حَيًّا بأن ذاق مرارة الفقر ، واســتجدى الثوب الذي يُوَارِي ســوأته ، وكان يجب لمثله أن يَرْفُلَ في حُلَلٍ مُذَهَّبَةٍ ، مثل البحتري وغيره من الشـعراء الذين تَسَـنَّمُوا ذُرَى المجد في عصـره ، وظُلِمَ مَيِّتًا بإهمال المترجمين وتناسيهم له ، وكأن شاعرنا تَنَبَّأَ بذلك ؛ فحاول أن يُتَرْجِمَ لنفسه ، فنجد ديوانه ترجمةً صـريحةً له ، " فما من أحدٍ له شـأن في حياته إلا وَجَدْتَ اسـمه في ديوانه ممدوحًا أو مهجوًا أو موصـوفًا أو مردودًا عليه "[2] ، فإذا تصـفحنا هذا الديوان وجدناه " مرآةً صـادقةً ، ووجدنا في المرآة صورة ناطقة "[3].

إن ديوانه أشـبه باعترافات أوسـكار وايلد التي سـجلها في كتابه المشـهور (من الأعماق) ، وكذلك اعترافات روســو وأندريه جيد وتولســتوى ، وغيرهم مِنْ الكُتَّاب النابغين النابهين الذين جعلوا أدبهم سيرة ذاتية لهم ، لا يخجلون من شيء ، ولا يتوارون ، فكشفوا أنفسهم لقرائهم ، ولأهل عصرهم ، وأظهروا بأمانة ما بهم من خَلَلٍ وانحراف ، ولا فارق بينهم وابن الرومي في هذه الصراحة والتلقائية إلا في ردّ فعل المجتمع ، فقد حَقَّرَ أهل القرن الثالث ابن الرومي ؛ لأنه اعترف بمســاوئه صــراحةً دون مواربة ، في حين أكبر المجتمعُ الغربي أدباءه واحْتَفَى بهم .

لقد كان ابن الرومي يُصَوِّرُ في شعره كل ما يراه في مجتمعه ؛ لذا نجد " موضوع حياته هو موضـوع شـعره ، وموضـوع شـعره هو موضـوع حياته ؛ فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسـه "[4] ، وهو بذلك يُسَاعِدُ كُلَّ من يترجم له ؛ " بما يقوم به من ملاحظة نفسه وتقييد شوارد فكره "[5].

ولذا فقراءة الديوان تُعِينُ على فهم طبيعة ابن الرومي ، وخاصـــــة أنه جُبِلَ على التلقائية الصريحة التي " بقيت حاكمة في سلوكه طيلة حياته ، ولم يستطع عنها حِوَلاً "[6]، وجعلته يُقِرُّ على نفسه بكثير من العيوب ، ولكن لم يرحمه الناس ، وضَخَّموا عيوبه ، وسخروا منه .

وتلقائيته هذه ، جعلت ديوانه ترجمة واضحة له ؛ " فما خَامَرَ طويته خُلُقٌ محمود أو مذموم إلا شَهِدَ به على نفسه كأنه في حرج من أمر كتمانه "[7]، يقول :

أُقِرُّ عَلَى نَفْسِي بِعَيبِي ؛ لأَنَّنِي ... أَرَى الصِّدْقَ يَمْحُو بَيِّنَاتِ المَعَايِبِ

لَؤُمْتُ – لَعَمْرُ اللهِ – فِيمَا أَتَيتَهُ ... وَإِنْ كُنْتُ مِنْ قَومٍ كِرَامِ المَنَاصِبِ [8]

وهو يرى أن ستر العيب عيب ؛ لذا يعترف بكل عيوبه ، معتقدًا أن ذلك يُخَفِّف منها ، يقول :

وَلا أُزَيِّـنُ عَـيـبِـي كَـي أُسَـــوِّغَـهُ نَفْسِـــي وَلا أَنْطِقُ البُهْتَـانَ وَالرَّفَثَـا
تَغْبِيـبُ ذِي العَيـبِ عَنْـهُ كَي يُزَيِّنُـهُ حِنْـثٌ وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْلِفْ فَقَـدْ حَنَثَـا
وَالعَيـبُ عَيبَـانِ فِيمَنْ لا يُقَبِّحُـهُ فَإِنْ تَجَاهَلَ عَيبَيهِ فَقَدْ ثَلَثَا [9]

وهو يعترف على نفسه بأنه عنين في قوله :

نَفَّرَ الخِلْمَ ، ثُمَّ ثَنَّى فَأَمْسَـــى خَبَّبَ العِرْسَ أَيَّمَا تَخْبِيبِ [10]

ويعترف أنه مُوَسوس بقوله :

إِنْ أُوَسْـــوَسْ فَـــحَـــقِـــيـــقٌ يُسْعَدُ القِرْدَ وَأُنْحَسُ [11]

ونســتطيع أن نقول إن كل أمراضــه ظهرت جلية في شــعره ، وكان لها أثرها الكبير في خصـائصـه الفنية ، وسـوف نوضـح أثر مرضـه على إبداعه الفني وتنوُّع أغراضـه ، علما بأننا لا نهدف من بحثنا إلى تحديد أمراضه فقط ، بل نتقصى أثرها في شعره أيضًا .

المبحث الأول : ابن الرُّومي الإنْسَان

ابن الرومي " علي بن العباس بن جريج ولد ببغداد في الســنة الأولى من ثالث عقود القرن الثالث ، في يوم الأربعاء بعد فجر الليلة الثانية من شــهر رجب ، وفي دار مواجهة لقصــر ابن المنصور بحي العقيقة ودرب الختيلة " [12].

وقد مات أبوه ولم يكد يشب عن الطوق ، ولم يذكر شيئًا عنه في ديوانه إلا أبيات تُمَثِّلُ فخرًا نمطيًّا بأصله الرومي [13] ، ولم يعتنِ أحدٌ باسم أبيه ولا بتحقيقه ؛ " فجاء مرة جريج ومرة جورجيس ومرة جورجس ، وكلها صور مختلفة للعَلَم جورج الشائع الآن بيننا ، فلا شبهة إذن في يونانيته لأبيه " [14] ، أمَّا أُمُّه فهي " حينة بنت عبد الله الســجري " [15] ، ولم يلتفت أحد إلى أبويها ، أو جَدّها ، ولكن يتضح من شعر ابن الرومي أنها فارسية لقوله :

وَكَيفَ أُغْضَـــى عَلَى الـدَّنِيَّـةِ وَالْ فُرْسُ خُؤْولِي وَالرُّومُ أَعْمَامِي [16]

وكثيرًا ما افتخر بأصــله الرومي [17] ، ولكن لم يهتم أحد بترجمة لوالديه ، وكما قيل " لقد عاش مظلوماً ومات مقتولاً " [18] ، وقد أبَى كثيرٌ من أصــحاب التراجم أن يترجموا له ، إما اتقاءً لنحسه ، وإمَّا لهجائه المقذع لأساتذتهم [19].

" وأحرى بمن قَصَّرَ في حقّ ابن الرومي أن يقصر في حقّ والديه ، ومن ذا الذي يتوقع من مؤرخي العرب أن يعنوا بغامضــين خاملين وقد ناموا عن نبيه مذكورٍ " [20] ، وقد ماتت أمه وهو كَهْل ، ودليل ذلك قوله يرثيها :

أَقُولُ وَقَـدْ قَـالُوا : أَتَبْكِي كَفَـاقِـدٍ رَضَاعًا وَأَينَ الكَهْلُ مِنْ رَاضِعِ الحَلَمْ [21]

وقد امتدت يد المنون لاختطاف أخيه الوحيد أبي جعفر بعد موت أمه مباشـرةً ، وقد رثاه بما يُبَيِّنُ ذلك :

بِـأَخٍ شَـــــقِـيـقٍ بَـعْـدَ أُمٍّ بَـرَّةٍ بِـالأَمْـسِ قَـطَّـعَ مِـنْـهُـمَـا أَقْـرَانَـهُ

وَأَجَـــلُّ رُزْءَيـــهِ أَخُـــوهُ فَـــإِنَّـــهُ قَدْ كَانَ مُنْصَلَهُ وَكَانَ سِنَانَهُ [22]

وكان فقره أول مصـــيبة أَلَمَّتْ به ، ثُمَّ توالتْ المصـــائب ؛ فمات أبناؤه الثلاثة أبو الحســـن ومحمد وهبة الله ، ورثاهم جميعًا – وكانت قصـيدة رثاء ابنه الأوسـط محمد [23] من أعظم قصـائد الرثاء في العربية – ، ثم ماتت زوجه أم أطفاله الثلاثة فرثاها [24] ، وتزوج بأخرى " أنجب منها طفلاً " [25] – في بعض الروايات ، وفي روايات أخرى لم يُنْجِبْ – ومات هو الآخر قبل موت ابن الرومي ، وقد فهمنا ذلك من قراءة قصة موته ، فلم نر أثرًا لأحد من أبنائه أو أسرته [26].

ولكثرة ما أصـــاب ابن الرومي من مصـــائب نظر إلى الدنيا بعين ســـوداء ، وتَطَيَّرَ، وتوقَّعَ الشر دائمًا ، وقد عبث به معاصروه لِمَا به من طِيَرة واختلال في أعصابه .

لقد كانت حياته – كما يتضـح من شـعره – سـلسـلة من النكبات التي توالت عليه ، وجعلته مُحَاطًا بالأوهام والوساوس .

ولقد أقبل على العلْم في بداية حياته ؛ " فالتحق بالكتاتيب التي كانت تُعْنَى بتحفيظ القرآن الكريم ، وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئًا من الحساب ؛ فالتهم ذلك كلَّه الصبيُّ ، ثم مضـــى يختلف إلى حلقات العلماء " [27] ، وأقبل على كل العلوم يغترف منها ، وقد ظهر أثر ذلك واضحًا جليًّا في شعره [28] ، وقد ألَمَّ بالفلسفة فكان يتعاطاها كما يقول المعرّي [29].

وقد اشـتهر ابن الرومي بإقباله على الطعام ، وما من طعام في عصـره إلا وصـفه شـعرًا ، وديوانه يزخر بكثير من الأطعمة [30] ؛ ولذلك كان حبه للطعام ســـببًا في موته كما يرى بعض الباحثين .

أما من ناحية صفاته الجسدية فقد كان نحيل الجسد :

أَنَـا مَنْ خَفَّ وَاسْـــتَـدَقَّ فَمَـا يُثْـ قِلُ أَرْضًا وَلا يَسُدُّ فَضَاءَ [31]

وقد أصابه المرض المُبَكِّر ؛ فاختلت مِشيته ، وتَقَوَّسَ جسده ، واشتعل شيب رأسه في الواحد والعشـرين [32] ، أو بعدها بقليل [33] ، وضَـعُفَ بصـره ، وضـعفت قدرته الجنسـية ، وقَبُحَ وَجْهُهُ ؛ فأعرضت عنه الغواني ، وقد اعترف ابنُ الرومي نفسه بذلك .

وبسبب ذلك كله حَسَدَ الناس ، وحَقَدَ عليهم ؛ لأنه يراهم دونه ، وعلى الرغم من ذلك فهم في منازل الأرباب [34].

ولأجل ذلك اندفع في الهجاء ؛ بُغْيَة تقبيح أهل عصـــره جميعًا ؛ حتى يفوقهم في العُلا ، ويُنَفِّسُ عن نفسـه ما يضـطرم بداخلها من عواطف مكظومة ، عن طريق إسقاط كُلّ ما أصـابه من أمراض على أهل عصره .

أما من ناحية إيمانه وتدينه ، فقد ذهب كثيرٌ من الباحثين إلى أنه كان متدينًا [35] ، ولكننا نرى أنه مضـطرب الدين ، اسـتثقل طاعة أوامر ربه ؛ فتَمَكَّنَ الشـيطان منه حتى صـار متشـائمًا ، ولنا على ذلك دلائل كثيرة ، منها : أنه اسـتعار رمز إسـلامي مقدس هو الكعبة لوصـف امرأة بغيّ يتجمع الزناة حولها [36] ، وأيضًا جعل المرأة التي تُجَامِع الرجل ترفع رجليها وكأنها تدعو ربها [37] ، كما جعل الشـــيخ الشـــاذّ يركع من أجل أن يُفْعَلَ به ، بدلاً من أن يركع لله ( ) [38] ، وعلاوة

على ذلك فقد سَبَّ الدهر كثيرًا في شعره ، وهو ما يتنافى مع العقيدة السليمة . وقد رماه بعض معاصريه بالزندقة ؛ فحاول أن يُبَرِّئَ نفسه من هذه التهمة في إحدى القصائد التي مدح بها إسماعيل بن حماد سنة 282 هـ [39].

كذلك هجاؤه الشديد لأصحاب اللحى ، وسخريته المريرة منهم .

ورُوِيَ أنه عند موته كان معه خنجر يريد أن ينتحر به حيث اشتدَّ عليه الألم [40] ، ومِمَّا يُدَلِّلُ على ضعف إيمانه حسده وحقده ، وعدم رضاه بما قُدِّرَ له ، فضلاً عن كثرة إفحاشه في الهجاء وتهتُّكه .

ومِمَّا يُؤَكِّدُ رقة دينه هجاؤه لشهر الصوم ؛ لأنه لا يطيق الابتعاد عن الطعام ، ولا يكتفي بلُقَيمَاتٍ منه ، يقول :

شَهْرُ الصِّيَامِ مُبَارَكٌ لَكِنَّمَا ... جُعِلَتْ لَنَا بَرَكَاتُهُ فِي طُولِهِ

شَهْرٌ يَصُدُّ المَرْءَ عَنْ مَشْرُوبِهِ ... مِمَّا يَحِلُّ لَهُ وَعَنْ مَأْكُولِهِ [41]

وعقوقه لوالده فى قوله :

لَو كَانَ مِثْلُكَ فِي زَمَانِ مُحَمَّدٍ . ... مَا جَاءَ فِي القُرْآنِ بِرُّ الوَالِدِ [42]

أما مذهبه ، فقد ذهب كثيرٌ من الباحثين إلى تشيعه مع اعتناقه الاعتزال في نفس الوقت [43] ، وقد قالوا بتشيعه لرثائه يحيى العلوي بقصيدته التي تفجع فيها كثيرًا عليه ، وهجا العباسيين ، ومطلعها :

أَمَامَكَ فَانْظُرْ أَيَّ نَهْجَيكَ تَنْهَجُ ... طَرِيقَانِ شَتَّى : مُسْتَقِيمٌ وَأَعْوَجُ [44]

وقالوا إن تشيعه هو سبب عدم مدحه للخلفاء ، وسبب عدم مثوله بين أيديهم ، وعدم دخوله سامراء ، وأنه وَرِثَ التشيع عن أبويه .

وليس معنى هجائه لفريق ورثائه لفريق اعتناقه لأحد الاتجاهات والمذاهب ، وإنما هي النفس الإنسانية تُحِبُّ فتمدح وترثي ، وتكره فتهجو ، ولا علاقة للمذهب بذلك .

أما اعتزاله ، فقد قال الباحثون : إن روح الجدل – التي غلبت على المعتزلة – ظهرت في شعره ، واعترف هو نفسه باعتزاله في مدحه للقاشي ؛ حيث يقول له عندما امتنع عن عطائه :

إِنْ لا يَكُنْ بَينَنَا قُرْبَى ، فَآصِرَةٌ ... لِلدِّينِ يَقْطَعُ فِيهَا الوَالِدُ الوَلَدَا الوَالِدُ

مَقَالَةُ العَدْلِ وَالتَّوحِيدِ تَجْمَعُنَا ... دُونَ المُضَاهِينَ مَنْ ثَنَّى وَمَنْ جَحَدَا [45]

كذلك قال مُقِرًّا على نفسه :

أَأَرْفُضُ الاعْتِزَالَ رَأْيًا ... كَلاَّ إِنِّي بِهِ لَضَنِينُ

وما أحسن ما قاله المعري في رسالة الغفران عن ابن الرومي : " البغداديون يدعون أنه متشيع ، وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء " [46] ، فما هو بالمعتزلي ولا المتشيع ، ولكنه يتجه حسب نفسيته وعُقَده وظروف عصره ؛ " فقد تقاسم ولاءه عدوّان لدودان من العباسيين والطالبيين ، فأين تكون العصبية ؟

لن يسعه إلا أن يبتسم في كل صوب بسمة العطف والدعابة ، وأن يصبح على غير قصدٍ منه عظيم الاستعداد للتسامح والفكاهة ، كالذي يختصم إليه بنوه ، ويَدَّعِي كُلّهم ما يَدَّعي من فضله وعيوب إخوته ، وكل ما فيه من فضل وعيب هو من لحمه ودمه " [47].

وما كان رثاؤه للعلوي تشيعًا ، فالعلوي هذا " قد وثب في الكوفة ، وأخذ ما في بيت المال ، وفَرَّقه على أصحابه ، وطرد عن الكوفة عاملها ، وكثرت جموعه ، فأرسل إليه أمير بغداد عسكره ، فالتقوا بشاهي ، وهي قرية قريبة من الكوفة ، وكانت الغلبة لعسكر بن طاهر ، وانكشف الغبار ويحيى بن عمر قتيل " [48] ؛ فرثاه ابن الرومي رثاءً حارًّا لا عن حُبٍّ فيه ، ولكن لسلوكه السابق ، وتوزيعه الأموال على أهله ، فظَنَّ أنه لو آلت أمور الحكم إلى مثل هذا الرجل ، سيوزعُ أموال الخلافة على أمثاله دون جهد ، ودون أن يقف على بابه مستجديًا ، فكان يحيى العلوي بارقة أمل لحياة رغدة سيتفيأ ظلالها ، فلَمَّا قُتِلَ شَعَرَ بالأسى لضياع هذا الحُلْم الجميل الذي عاشه ، فحزن حزنًا شديدًا ، لا لموت يحيى ، وإنما لموت أمنيته قبل أن تتحقق ، ومن هُنَا فرثاؤه لا عن تشيُّعٍ فيه ، لكنه حُزْنٌ على ما اندثر من أمنيات .

وشاعر مثل ابن الرومي ضعيف الدين والعقيدة من الصعب أن نجد له مذهبًا يتبعه ومبدأ يلتزم به ، وهو كغيره من الشعراء :

يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ مَسَبَّةً ... مِنَ اللهِ مَسْبُوبٌ بِهَا الشُّعَرَاءُ

وَمَا ذَاكَ فِيهِمْ وَحْدَهُ بَلْ زِيَادَةٌ ... يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُ الأُمَرَاءُ [49]

وأكبر دليل على ما قلناه أنه ما مدح أحدًا إلا انقلب عليه وهجاه ، وكأنَّ مديحه تنبيه للسامع حتى يلتفت إليه ويسمع ما سيقوله من هجاء :

أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي قَبْلَ الأَهَاجِي ... أُقَدِّمُ فِي أَوَائِلِهَا النَّسِيبَا

لِتَخْرِقَ فِي المَسَامِعِ ثُمَّ يَتْلُو ... هِجَائِي مُحْرِقًا يَكْوِي القُلُوبَا

كَصَاعِقَةٍ أَتَتْ فِي إِثْرِ غَيْثٍ ... وَضِحْكُ البِيضِ تُتْبِعُهُ نَحِيبَا [50]

وهذا ما يفعله ابن الرومي ، يمدح ثم يهجو ، وما ندري إنْ عاش يحيى العلوي قليلاً بعد تلك القصيدة أكان سيواصل مديحه له ؟ أم سيصب عليه شواظ هجائه ، مثلما فعل مع باقي ممدوحيه الذين صاروا مهجوين بعد ذلك بسبب وبدون سبب ؛ وذلك لأنه جعل الهجاء فنَّه الأول والأخير ، فضاعت قيمته وقَلَّت سطوته .

وجاءت سكرة الموت ؛ فلَقِي حتفه عام 283 هـ ، والقدماء يرون أنه مات مسمومًا [51] ، ورأى بعض المحدثين أنه مات ميتة طبيعية لكثرة علله وأمراضه [52].

وهناك مَنْ تَوَسَّط فقَبِلَ رأى القدماء ، وأثار شكوكًا نتبين منها سببًا آخر لموته وهو مرض السكر [53] . وأنا مع هذا الرأي الأخير ؛ لأن كُلّ ما ظهر على ابن الرومي من أعراض تُعَدُّ من أثر مرض السكر ، ومنها : العُنَّة ، والعطش ، وكثرة التبول ، والصلع ، واختلال الأعصاب ، وضعف البصر ، ونهمه الشديد لالتهام الطعام ؛ لإحساسه الدائم بالجوع ، والنحافة التي اشتُهِرَ بها [54].

المبحث الثانى : أَمْرَاضُ ابن الرُّومي الجَسَدِيَّة

بعد أن عرفنا ابن الرومي وأصـله ونسـبه ومعتقده وتدينه ، نقول إن ثمة دلائل توضـح أنه كان على غير السَّنَن المعتاد بين البشر ؛ فشيبةُ المبكر الذي اشتعل برأسه في الواحد والعشرين أو بعدها بقليل ، وموت أبنائه ، ونهمه الشديد ، كل ذلك يدل على اعتلاله .

ومن خلال قراءتنا لشـعره وجدنا كثيرًا من العِلَل والأمراض ، وسـوف نعرض للأمراض الجسدية بادئين بأقلها منتهين بأخطرها .

النَّهَم Glutton

أول سمة نلاحظها في ديوانه كثرة وصفه للطعام ، " فما عَرَفَ الأدب العربي شاعرًا ترك في ديوانه مائدة تختلف عليها ألوان الطعام والشـراب مثل ما عرفناه عن ابن الرومي من هُيَام وشـراهة ونهم ، ثم تصوير ذلك وتسجيله على نفسه من غير مبالاة وبلا تحفظ ولا تصوُّن " [55].

ولَعَلَّ ذلك النَّهَم كان سبب ذِكْرِه في حضرة الخلفاء ، وقد حفظ بعضهم أشعاره في الطعام ؛ فرددوها أمام الخلفاء على سبيل التندُّر والتفكُّه .

وقد دفع هذا النهم علي شلق إلى أن يقول : " عندما أقرأ شعر ابن الرومي في المشتهيات المعدية ، المعوية ، البلعومية ، أكون قد ملأت جوفي من الطيبات التي ربما اقتضى تحضيرها أو إحضارها شيئًا كثيرًا " [56] .

ولا يكتفي ابن الرومي بوصف الأطعمة ، بل يطلب من الآخرين أن يشبهوه في هذا الحبّ ، وأن يكون لهم نفوس تعشـق المناعم ، بل يحرص أيضًـا على " تسـجيل الطريقة التي بها يؤلف المطبوخ ؛ ليصير مقبولاً مكرمًا ، كما لا ينسى بعد إنضاجه أن يشير عليك كيف تتناوله عارضًا ذلك جميعًا في قصـيدته مجمع اللذَّات " [57] ، التي سُـمِّيَتْ بهذا الاسـم لِمَا تَغُصُّ به من أطعمة مختلفة ، وهو يفتتحها بقوله :

يَا سَائِلِي عَنْ مَجْمَعِ اللَّذَاتِ سَأَلْتَ عَنْهُ أَنْعَتَ النُّعَاتِ [58]

كما سُمِّيَتْ قصيدة أخرى " دار البطيخ " ؛ لكثرة الفاكهة التي وردت بها ، واستهلها بقوله :

أَجْنَتْ لَكَ الوَجْدَ أَغْصَانٌ وَكُثْبَانُ فِيهِنَّ نَوعَانِ : تُفَّاحٌ وَرُمَّانُ [59]

فقد غَصَّ الديوان بألوان مختلفة من الطعام والشراب ، وهذا يدل على شدة نَهَم ابن الرومي ؛ فقد كان يُقْبِلُ على الطعام إقبالاً شديدًا ؛ فهو لا يشبع إلا حين يشعر بالتُّخْمَة ، وفي ذلك يقول :

ذَرِينِيَ قُسْـطَنْطِينُ آكُـلُ شَـهْوَتِي وَتُبْشُـمُنِي إِنِّي بِـذَلِـكَ رَاضِـي

فَـأَكْثَرُ مَـا أَلْقَى مِنَ الزَّادِ كِظَّـةٌ مَدَى يَومِهَا وَاليَومُ أَسْـرَعُ مَاضِـي

وَلَـكِـنَّ أَمْـرًا قَـدْ بُـلِـيـتُ بِـحُـبِّـهِ قَوَاضِيهِ إِنْ أَنْحَتْ عَلَيَّ قَوَاضِي [60]

وهو لا يقبل النصيحة من أحد ، يقول :

أَيُّـهَـا الـعَـاذِلُ لا أَخْـ ـطَـأَكَ الحَينُ المُتَـاحُ

إِنْ يَكُنْ عِنْدَكَ لِي نُصْـ ـحٌ فَمَا عِنْدِي انْتِصَـاحُ

لا تَلُمْنِي فَـالـهَوَى فِيـــــــــــــــــــــــــــهِ جِمَـاحٌ وَطِمَـاحُ

مَـا عَـلَـى الـمَـفْـتُـونِ فِـيـمَـا غَلَبَ الصَّبْرُ جُنَاحُ[61]

وليس بخافٍ أن أكثر الأمراض التي تصـيب الإنسـان تأتي عن طريق المأكل والمشـرب ، وابن الرومي يُدْرِكُ ذلك جيدًا ، ولكنه مع ذلك يرفض أن يعتدل في الطعام ، ويقبل عليه بغير حساب ، ومَنْ يفعل ذلك " لا يعرف معنى اللذة في الطعام ، ولا يميز بين الغثّ والسمين ، ولا بين الحلو والمُرّ "[62].

والطعام من أسـباب هلاك ابن الرومي ، خاصـةً إذا صَـحَّ كونه مصـابًا بمرض السـكر ، وسبب إقباله على الطعام بهذه الطريقة المُلْفِتَة للنظر عجزه وضعفه من ناحية ، وتشاؤمه من ناحية أخرى ، أما عجزه وضـعفه فقد دفعاه إلى الإقبال على الطعام على سـبيل التعويض ، " ولكن هذا الامتلاء والإسراف والبطنة والكظة ضاعف سقمه ، وأسهم كثيرًا في إنهاك أعصابه ، وسقم جسمه ، فازداد ... سقمًا على سقم ، وعلةً على علة ... فيتحول الطعام عنده وهو مصدر الصحة إلى سُمّ ناقع وعلة قاتلة ؛ فازداد سوءًا على سوء ، فهو يأكل ليعوض عجزه ؛ فإذا بالتخمة تُسَاهِمُ هي أيضًا في الضعف والمرض "[63].

أما تشاؤمه فكان سببًا آخر في نهمه ؛ فالمتشائم دائمًا ينتظر السوء ؛ ولا يرى خيرًا ؛ فأراد أن يحصـــل على كُلّ ملذاته في يومه الذي لا يضـــمن أن يعود مرة أخرى ؛ فأقبل على الطعام والشراب هذا الإقبال المَرَضِي الذي كان عَرَضًا لمرض السكر .

وذلك على الرغم من أنه يَنُصُّ في أشعاره صراحةً على أن أغلب أدواء الجسم يكون السبب فيها الإفراط في المأكل والمشرب ، يقول :

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَـرَاهُ يَحُولُ مِـَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ [64]

ويقول أيضًا :

كَذَاكَ الدَّاءُ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ مِنَ الأَشْيَاءِ تَحْلُو فِي الحُلُوقِ [65]

ومِمَّا ســبق يتضـــح لنا أن نَهَم ابن الرومي لم يكن مجرد حُبّ للطعام فحســـب ، بل كان مَرَضًا ؛ فهو لا يستطيع أن يبتعد عن الطعام ، أو يُقَلِّلَ منه ؛ حتى كان سببًا في القضاء عليه ، إما بالسُّم الذي دُسَّ له في الخشكاننجة فالتهمها ومات بسببها ، أو بالتَّسَمُّم الناتج عن ارتفاع السكر في الدم .

الشُّذُوذ الجِنسِّي Homosexuality

لقد أقبل على الجنس في بداية حياته إقبالاً شـديدًا ، فحُبّه للجنس لا يقل عن حبه للطعام ، فبقدر حبه للطعام كان إقباله على الجنس ؛ فأفرط فيه ؛ فتزوج مرتين ، وإن كانت زيجته الثانية قد فشلت بسبب عُنَّته ، يقول :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى القِنَاعِ الذِي مَحْـ ـحَ وَأُعْقِبْتُ مِنْهُ شَرَّ عَقِيبِ

مَنَعَ العَينَ أَنْ تَقَرَّ وَقَـرَّتْ عَينُ وَاشٍ بِنَا ، وَعَينُ رَقِيبِ

شَانَ دِيبَاجَةَ الشَّبَابِ وَأَزْرَى بِقَوَامٍ لَهُ ، وَلِينِ عَسِيبِ

نَفَّرَ الخِلْمَ ، ثُـمَّ ثَنَّى فَأَمْسَى خَبَّبَ العِرْسَ أَيَّمَا تَخْبِيبِ

فِي قِنَاعٍ مِنَ المَشِيبِ لَبِيسٍ وَرِدَاءٍ مِنَ الشَّبَابِ قَشِيبِ [66]

وقد واقع الغِلْمَان ، وظهر ذلك جَلِيًّا في شعره ، ومن ذلك قوله :

أَسْـــتَغْفِرُ اللهَ مِنْ تَرْكِي عَلانِيَـةً ذَنْبًـا هَمَمْـتُ بِـهِ فِي شَـــادِنٍ خَنِـثِ

ظَبْـيٌ دَعَـتْنِـي عَـيـنَـاهُ وَمَـنْـطِـقُـهُ بِنِيَّـةٍ صَـــدَقَـتْ عَنْ ظَـاهِرٍ عَبِـثِ

فَـلَـمْ أُجِـبْـهُ وَحَـظِّـي فِـي إِجَـابَـتِـهِ لَكِنْ سَـــكَـتُّ كَـأَنِّي غَيرُ مُكْتَرِثِ

لا بَلْ فَرَرْتُ وَظَلَّ الصَّـــيدُ يَطْلُبُنِي ! وَاللهِ مَا كُنْتُ فِيهَا بِالفَتَى الدَّمِثِ

أَقْسَمْتُ بِاللهِ لَمَّا قُمْتُ مُحْتَجِزًا إِنِّي انْبَعَثْتُ بِقَلْبٍ غَيرِ مُنْبَعِثِ[67]

وقد يكون ذلك ادعاءً من ابن الرومي ؛ لأنه اتُّهِمَ في رجولته ؛ فحاول أن ينفي عن نفســه تلك الرذيلة ، بأن يبالغ في وصـف فحولته ، وادعاء ما ليس فيه ، ولكنه لا يترك مجالاً للشـك في أنه وقع في تلك الرذيلة ، والقصيدة طويلة يُبَيِّنُ فيها تلك العلاقات الشاذّة التي مارسها ، يقول :

يَـا سُـــلَـيـمَـانُ ظِـمَـاءً قُـطِـعَـتْ عَـنْـكَ السَّـــوَاقِـي

شِـــخْـــتَ فَـــأْذَنْ بِـفِـرَاقٍ وَتَـــجَـــهَّـــزْ لانْـــطِـــلاقِ

بِـــنْـــتَ عَـــنِّـــي بِـــطَـــلاقٍ وَطَـلاقٍ وَطَـلاقِ [68]

وقد وصــف النســاء جميعًا بالغدر؛ فهن عنده كالبُسْــتَان ، يكتســى ألوانًا من الزهر حينًا (الوعود) ، ثُمَّ يُعْرَى حينًا آخر (الإخلاف) ، كثيرات النســيان كما يَدَّعِينَ ، لكنهن – في الحقيقة – كاذبات ؛ لأنهن يُسَوِّغْنَ نقضهن لعهودهن معه بادعاء النسيان ، كما يقول :

وَلا يَدُمْنَ عَلَى عَهْدٍ لِمُعْتَقِدٍ أَنَّى وَهُنَّ كَمَا شُبِّهْنَ بُسْتَانُ ؟

يَمِيلُ طَورًا بِحِمْلٍ ثُمَّ يُعْدَمُهُ وَيُكْتَسَى ثُمَّ يُلْفَى وَهْوَ عُرْيَانُ

حَالاً فَحَالاً كَذَا النِّسْوَانُ قَاطِبَةً نَوَاكِثٌ ، دِينُهُنَّ الدَّهْرَ أَدْيَانُ

يَغْدِرْنَ ، وَالغَدْرُ مَقْبُوحٌ يُزَيِّنُهُ لِلغَاوِيَاتِ وَلِلغَافِينَ شَيطَانُ

فَإِنْ تُبِعْنَ بِعَهْدٍ قُلْنَت: مَعْذِرَةً إِنَّا نَسِينَا ، وَفِي النِّسْوَانِ نِسْيَانُ

يَكْفِي مُطَالِبُنَا لِلذِّكْرِ نَاهِيَةً أَنَّ اسْمَنَا الغَالِبَ المَشْهُورَ نِسْوَانُ [69]

ومن أوضـح الدلائل على شـذوذه العُنَّة التي عُيِّرَ بها ؛ فقد زهد في النسـاء لا عن كرهٍ لهن ولكن عن ضـعف ؛ فأراد أن يَرْوِي شـهوته ؛ فلم يجد طريقًا يبلغ به ذلك إلا الشـذوذ مع الغلمان ، وكان إفراطه في الجنس سببًا آخر في تهدُّم بُنْيَانِه واختلال قُوَاه .

العُنَّــة Impotent

وقد اتُّهِمَ أيضًا بعدم القدرة على مواقعة النساء ، أو العُنَّة ، وهي من الأمراض النفسجسمية في بعض الأحيان ، وأحيانًا أخرى تكون عضوية .

وقد يشعر القارئ بأني ناقضتُ نفسي في اتهام الرجل بالشذوذ والعُنَّة في وقتٍ واحد ، وأرى أنَّ العُنَّة هي التي دفعته إلى الشذوذ ، فقد فشل في مواقعة النساء لضعفه الجنسي ، وأراد أن يُدْرِكَ الفتيل الذي بَقِيَ له من رجولة ، فلم يجد بُدًّا من الشذوذ ، وكان حاله كما قال :

شَعَرٌ مَيتٌ لِذِي وَطَرٍ حَيـ ـــيٍ كَـــنَارِ الـــحَرِيقِ ذَاتِ اللَّهِيبِ

مَـعَـهُ صَـــبْوَةُ الـفَـتَـى ، وَعَـلَـيـهِ صَرْفَةُ الشَّيخِ ، فَهْوَ فِي تَعْذِيبِ [70]

وقد اعترف بعنانته في معرض كلامه على خَيْبَتِه مع زوجه ، وأشار إلى شبابه الراحل ، وما جَرَّه عليه شيبه من عُنَّة [71].

كما اتُّهِمَ بالضعف الجنسي والتخنث ، وقد عَرَفَ معاصروه بمرضه فسخروا منه ، ومن ذلك أنه عندما أراد أن يتزوج بنت نضـر الجهبذ منعه أخوه من ذلك ، وقال : أما تنظر إلى مِشْـيته ؟ ! إنها تشبه مِشْيَة المُخَنَّثِين ؛ فهجاه ابن الرومي هجاءً مُرًّا قائلاً :

أَبَـا مُـنْـذِرٍ بِـاللهِ إلاَّ صَـــدَقْـتَـنِـي عَلامَ وَلِمْ خَنَّثْتَنِي يَـا أَخَـا النَّضْـرِ

وَلَو عَزَمَـتْ نَفْسِـــي عَلَى قَطْعِ لُجَّـةٍ مِنَ البَحْرِ سَـــبْحًا مَا نَكَلْتُ عَنِ البَحْرِ

وَلَو مَسَّ ثَوبِي ثَوبَ أُمِّـكَ مَسَّـــةً لأَولَدَهَا خَمْسِـــينَ مِثْلِكَ فِي شَـــهْرِ

فَـأَيَّـــةُ آيَـــاتِـــي وَأَيُّ أَدِلَّـــتِـــي تَدُلُّ عَلَى التَّخْنِيثِ يَا ابْنَ أَبِي عَمْرِو

فَـإِنْ كُنْـتَ فِي رَيـبٍ وَلَمْ تَرَ آيَـةً تُبَيِّنُ مَـا قَـدْ لُبِّسَ الشَّـــكُّ مِنْ أَمْرِي

فَجَرِّبْ عَلَى إِحْـدَى بَنَـاتِـكَ فِحْلَتِي مَتَى شِـــئْتَ ، فَالتَّجْرِيبُ أَثْلَجُ لِلصَّـــدْرِ

فَـلَـو لَـقِـيَـتْـنِـي بِـكْـرُهُـنَّ لِـقَـاءَةً لَمَا نَسِيَتْ أَيرِي إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ [72]

وهذه فحولة مُدَّعَاةٌ ، وخاصـــة في البيت الثالث ، فنحن نعرف أنه تزوَّجَ مرتين ، ولم يُنْجِبُ إلا ثلاثة أطفال ، وكان يبالغ حتى ينفي عن نفســـه تلك التهمة ، ولكن " الرجل القوي الذي تهواه النساء لا يدفع عن نفسه الخنوثة بلسانه ؛ لأن فحولته أكبر شاهد على رجولته [73].

ومرة أخرى يغتابه أحد معاصريه بالعُنَّة فيهجوه قائلاً :

عَـــاقَـــبَ اللهُ كُـــلَّ مَـــنْ قَـــالَ : إِنِّـــي مُـــخَـــنَّـــثُ

بِـمَـبِـيـتِـي مَـعَ أُمِّـهِ لَـيـلَـةً لا تُـثَـلَّـثُ

لَـــو رَأَى ثَـــمَّ وَيـــحَـــهُ أَرْضَـــهَـــا كَـيـفَ تُـحْـرَثُ

وَهْـي مِـنْ حَـرِّ فَـيشَـتِـي تَـتَـلَـظَّـى وَتَـلْـهَـثُ

لَـــدَرَى هَـــلْ مُـــذَكَّـــرٌ فَوقَهَا أَمْ مُؤَنَّثُ [74]

" وهذا الردّ لا يصـــدر إلا مِمَّن أوجعه ما عُيِّرَ به " [75] ؛ لأن الفحل الحقّ لا يدفع التُّهَم ؛ لأن التهم لا تجد طريقها إليه [76].

فهو بالفعل عنين ، وقد اعترف بذلك دون أن يدري حين قال :

نَـفَّـرَ الـخِـلْـمَ ، ثُـمَّ ثَـنَّـى فَـأَمْسَـــى خَبَّبَ العِرْسَ أَيَّمَا تَـخْبِيبِ [77]

ومن هُنَا فقد حاول تعويض ما يَشْعُرُ به من نقص عن طريق هذه الادعاءات المُبَالغ فيها . ولكن مرض العُنَّة هذا كان عرضًـــا لمرض آخر هو مرض الســكر ، أضـــف إلى ذلك أن فُحْشَ أهاجيه وكثرة ذكره أعضاء التناسل في ديوانه بأسمائها دلالة على عنته .

ضَعْف البَصَر Night-blind

ولم يقتصـر الأمر على الأمراض السـابقة ، بل مرضـت عيناه ، وصـار يرى الأشـياء رؤيةً مزدوجة ، يقول :

وَبُورِكَ طَرْفِي فَالشّ ِخَاصُ حِيَالَـهُ قَرَائِنُ مِنْ أَدْنَى مَدًى وَهْيَ فُرَّدُ [78]

وقال أيضًا :

وَأَحْـدَثَ نُقْصَـــانُ القُوَى بَينَ نَـاظِرِي وَسَمْعِي وَبَينَ الشَّخْصِ وَالصَّوتِ بَرْزَخَا [79]

ونراه في نَصٍّ آخر يُسْهِبُ في وصف ما آل إليه بصره من ضعف ؛ فيقول :

شُـــغِلْـتُ عَـنْـكَ بِـعُـوَّارٍ أُكَـابِـدُهُ لا بِـالـمَـلاهِـي وَلا مَـاءِ الـعَـنَـاقِـيـدِ

قَاسَـــيتُ بَعْدَكَ –لا قَاسَـــيتَ مِثْلَهُمَا– نَهَـارَ شَـــكْوَى يُبَـارِي لَيـلَ تَسْـــهِيـدِ

أُمْسِـي وَأُصْـبِحُ فِي ظَلْمَاءَ مِنْ بَصَـرِي فَـمَـا نَـهَـارِي مِـنْ لَـيـلِـي بِـمَـجْـدُودِ

كَـأَنَّـنِـي مِـنْ كِـلا يَـومِـي وَلَـيـلَـتِـهِ فِي سَـــرْمَـدٍ مِنْ ظَلامِ اللَّيـلِ مَمْـدُودِ

إِذَا سَـــمِعْتُ بِذِكْرِ الشَّـــمْسِ آسَـــفَنِي فَصَـــعَّـدْتُ زَفَرَاتِي أَيَّ تَصْـــعِيـدِ

أَرْعَـى الـنُّـجُـومَ وَأَنَّـى لِـي بِـرِعْـيَـتِـهَـا وَطَرْفُ عَينِيَ فِي أَسْرٍ وَتَقْيِيد؟ [80]

فقد اســتوت عنده الأنوار والظُّلَم ؛ لِمَا اعترى بصــره من ضــعف ووهن ، ونعتقد أن ذلك لإقباله النَّهِم على العلم في بداية حياته ، ثم إصابته بمرض السكر.

تَقَوُّسْ الظَّهْر وضَعْفِهِ Arched back

لا شك أن للعمود الفقري فوائد كثيرة ، ومتانته دلالة على قوة المرء وصحته ، وتقوُّسه دلالة على الضعف والوهن ، وتقوُّسه يكون سببًا في اختلال الأعصاب ، ويؤثر على المِشْية ، وقد تقوس ظَهْر ابن الرومي ، وقال في ذلك :

وَأَرَى قَوَامِي لَجَّ فِي تَقْوِيسِهِ وَلَقَدْ يَلِجُّ اللّينُ فِي تَعْطِيفِهِ [81]

وقوله أيضًا :

أَقُولُ وَقَدْ شَابَتْ شَوَاتِي وَقَوَّسَتْ قَنَاتِي وَأَضْحَتْ كِدْنَتِي تَتَخَدَّدُ [82]

وقوله أيضًا :

وَأَضْـــحَـتْ قَنَـاةُ الظَّهْرِ قُوِّسَ مَتْنُهَـا وَقَدْ كَانَ مَعْدُولاً وَإِنْ عِشْتُ فَخَّخَا [83]

ويوجد النخاع الشوكي الذي يسيطر على الأعصاب في الظهر ؛ ولتقوُّس ظهره ، ضعفت أعصابه ، واضطربت مشيته ، وجانبته العصا ، واعترف بذلك في قوله :

وَدَبَّ كَـلالٌ فِـي عِـظَـامِـي أَدَبَّـنِـي جَنِيبَ العَصَا أَنْأَدُّ أَو أَتَأَيَّدُ [84]

وقوله :

إِنَّ لِي مِشْيَةً أُغَرْبِلُ فِيهَا آمِنًا أَنْ أُسَاقِطَ الأَسْقَاطَا [85]

واضطراب الأعصاب والغربلة في المشي – أيضًا – عَرَض من أعراض مرض السكر.

مَرَضُ السُّكَر Diabetes

بَقِيَ من الأمراض الجسدية مرض السكر، وقد ذهب العقاد إلى أنه قد يكون سبب موت ابن الرومي [86] ، وهو من الأمراض النفسجسمية أو الوراثية ، وقد يأتي بشكل مفاجئ نتيجة للضغوط النفسية التي يُصَاب بها الإنسان ، وما أكثرها عند شاعرنا ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت ظروف مجتمعه عقبة في طريقه إلى المجد ، وكان يملك من المواهب ما يؤهله لبلوغ أعلى المراتب ، ولكنه فشل لتشاؤمه ونحسه ومرضه .

إذن أول أسباب مرض السكر الضغوط النفسية ، أما أعراضه فقد ظهرت جلية على شاعرنا ، وأولها شعوره بحرقان في البول والظمأ [87] ؛ لذا كان يُكْثِرُ من شُرْب الماء البارد ، يقول في ذلك :

أَشْـــرَبُ المَـاءَ إِذَا مَـا الْـتَـهَـبَـتْ نَـارُ أَحْشَـــائِي لإِطْـفَـاءِ اللَّـهَـبْ

فَـأَرَاهُ زَائِـدًا فِـي حُـرْقَـتِـي فَكَأَنَّ المَاءَ لِلنَّارِ حَطَبْ [88]

وشكواه من كثرة إلحاح البول ، و" ومرض السكر يُحْدثُ لصاحبه تسمُّمًا في الدم وقلة تجلط ، ولا سيما بعد أكل الحلوى والإفراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تعوزه أسباب الإصابة به ؛ لأنه كان منهومًا بالحلوى" [89].

والنحول الذي أُشْتُهِرَ به ، مع كثرة نهمه للطعام ، دلالة أخرى على إصابته بالسكر ، ومن أعراض السكر الصلع [90] الذي زحف برأس الرجل ، ومعروفٌ أن سقوط الشعر مرتبط – بدرجة كبيرة – بالحالة النفسية للفرد .

واستنادًا إلى كل ما سبق أرى أنه مات بالسُّمّ ، ولكنه ليس سُم القاسم بن عبيد الله ، وإنما سُمّ مرض السكر الذي انتشر في جسده فقضى عليه ، ومن هنا فقد مات ميتةً طبيعية دون تدخل القاسم أو غيره . وكان لأمراضه – لا محالة – أثرٌ كبيرٌ في فنه .

المبحث الثالث : أَمْرَاضُ ابن الرُّومي النَّفْسِيَّة

وننتقل للحديث عن الأمراض النفسية التي أَلَمَّتْ به ؛ وذلك لأن هناك صلة وثيقة بين الجسم والنفس ، تتجلى في حالتي الصحة والمرض .

وكثرة التفكير في المرض تقود إليه ؛ فكثيرٌ من الأمراض الجسدية التي أُصِيبَ بها كان سببها نفسيًّا ، مثل : الصلع ، والسُّكر ، والعُنَّة ، والشُّذوذ ؛ لذا لا بُدَّ أن نسبر أغوار نفسه لنعرف تلك الأمراض ، ولعل أولها :

التلقائية والصراحة

اللتان جُبِلَ عليها ؛ فقد كان يبوح بكل أسراره ، ويتحدث بتلقائية وصراحة عن نفسه ، وهذه الصراحة خُلَّة محمودة بمعايير الأخلاق ، ولكنه لم يمزجها بالمداراة والملاينة ؛ كي يكسب ودّ أهل عصره ، ويستطيع التعايش معهم .

لفقد جعل ديوانه سجلاً لحياته ، يقول :

أُقِـرُّ عَـلَى نَـفْسِي بِعَيبِي ؛ لأَنَّنِي أَرَى الصِّدْقَ يَمْحُو بَيِّنَاتِ المَعَايِبِ [91]

وكانت هذه الصراحة سببًا في موته ، كما أبعدته عن مجالس الخلفاء والأمراء ؛ " لأن من كان مثله مطبوعًا على الاعتراف بعيوبه لا نخاله يمسك لسانه ويحفظ سرًّا رآه ساعة لهوه ؛ فإذا حَجَبَهُ الأمراءُ عن مجالس الخلوة ؛ فلأنه لا ينفعهم في تلك المجالس ، ولا يُؤْمَنُ عندهم على أسرارها ، وما يقع فيها من فلتات اللسان وبوادر رفع الكلفة وإرسال النفس على السجية ، لكنهم كانوا يحجبونه أيضًا عن المجالس العامة ، ولا يقتصرون على حجبه عن المجالس الخاصة " [92].

ودفعته هذه الصراحة غير المتبصرة إلى أن يطالب عبيد الله بن عبد الله أن يساوي بين الحسن والقاسم قائلاً :

سِبْطَكَ الأَكْبَرُ المُبَارَكُ رَأْيًا رُوَاءً وَحَقِّ طِيبِ وِلادِهْ

لا تُبَاعِدْهُ مِنْ أَمَامَكَ مَا اسْطَعْـ ـتَ فَلَيسَ الصَّوَابُ فِي إِبْعَادِهْ

هَبْهُ سَيفًا أَعْدَدْتَهُ قَلَعِيًّا لِلإِمَامِ النَّجِيدِ فِي إِنْجَادِهْ [93]

إلى أن يقول :

فَاتَّقِ اللهَ وَالعَوَاقِبَ وَالسُّلْـ ـطَانَ وَاشْدُدْ سُلْطَانَهُ بِوِكَادِهْ

لَيسَ يُوهِي أَخَاهُ شَدُّكَ إِيَّا هُ بِهِ بَلْ يَزِيدُهُ فِي اشْتِدَادِهْ

أَهْدِ لِلقَاسِمِ الوَحِيدِ أَخَاهُ إِنَّ إِيحَاشَهُ أَخُو إِيحَادِهْ [94]

وهذا سلوك مثالي أخرق ؛ لأن مثل هذا الشعر لا يمكن أن يروق الممدوح ، بل – على العكس – سيجعله يغضب من الشاعر ، ويعمل على الانتقام منه ، ولكن ابن الرومي – كما قال العقاد – " طفلٌ كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته " [95].

ولم يكتفِ بذلك ، بل هجا الوزير القاسم بن عبيد الله ، المشهور بدمويته ، هجاءً فاحشًا مُقْذِعًا [96] .

ويقول في هجاء آل وهب :

تَرَكْنَا لَكُمْ دُنْيَاكُمُ ، وَتَخَاضَعَتْ بِنَا هِمَمٌ قَدْ كُنَّ فَوقَ الفَرَاقِدِ

لَئِنْ نِلْتُمُ مِنْهَا حُظُوظًا ، لَقَدْ غَدَتْ نُفُوسُكُمُ مَذْمُومَةً فِي المَشَاهِدِ

تَسَمَّيْتُمُ فِينَا مُلُوكًا ، وَأَنْتُمُ عَبِيدٌ لِمَا تَحْوِي بُطُونُ المَزَاوِدِ

وَأَحْيَيْتُمُ دِينَ الصَّلِيبِ ، وَقُمْتُمُ بِتَشْيِيدِ أَعْمَارٍ ، وَهَدْمِ مَسَاجِدِ

فَكُلُّ الذِي أَظْهَرْتُمُ مِنْ فَعَالِكُمْ دَلِيلٌ عَلَى تَصْدِيقِ خُبْثِ المَوَالِدِ [97]

وهنا يُعَيِّرُهُم بدينهم المسيحي ، قبل أن يدخلوا في الإسلام ، ومِنْ ثَمَّ فَقَدَ أقلّ أدوات النجاح بمقاييس عصره .

وقد جَرَّتْ عليه هذه الصراحة متاعب كثيرة ، منها الفشل الذريع الذي تَجَرَّعَ مرارته ، وكان الأولى بمثله أن يتبوأ أعلى المناصب ، ولكنه كان صِفْرًا من الدهاء واللباقة ؛ فلم ينل ودّ الخلفاء والأمراء وعامة الناس أيضًا .

وليت أهل عصره فهموا صراحته حَقّ الفهم ، فالتمسوا له الأعذار ، وليته هو الآخر فهم ذلك ، وحاول التحَلّي بالكياسة والدُّرْبة في سياسة الأمور ، ولكنه لم يستطع التخلي عن هذه الصراحة ، التي تُشْبه عفوية الأطفال ، ولا نستطيع أن نحاكم الطفل لأنه لا يفكر فيما يقول قبل أن ينطق ؛ فهو يصف ما رآه دون أن يحذف أو يزيد أو يُزَيّن .

الحَسَد والحقد :

لقد أَقَرَّ ابن الرومي على نفسه بالحسد والحقد ، أما " الحسد فهو حالة انفعالية شائعة بين معظم الناس . وهو نوعان : أحدهما هو كراهية الفرد رؤية الغير أفضل منه في نعمة ؛ ولذلك فهو يتمنى الحصول عليها ، ويتمنى زوالها عن الغير ، وهذا هو الحسد المذموم والحرام والمنهي عنه شرعًا "[98].

وما كان ابن الرومي من هذا النوع من الناس ؛ فقد كان يرى غيره من ذوي الجهل ينامون على الحرير ، وهو يفترش التُّرَاب ؛ فيصرخ صرخة مكلوم قائلاً :

أَمِنَ العَدْلِ أَنْ تَعُدَّ كَثِيرًا لِيَ ، مَا تَسْتَقِلُّ لِلأَوْقَابِ ؟

أَتُرَانِي دُونَ الأُولَى بَلَغُوا الآ مَالَ مِنْ شُرْطَةٍ وَمِنْ كُتَّابِ [99]

إنهم في منزلة العبيد ، بل أقل منهم ، وعلى الرغم من ذلك أصبحوا مقربين ، وغيرهم من أولي الفضل غرباء ؛ فيصرخ قائلاً ، وكأنه حاسد لهم :

لَو تَرَى القَومَ بَينَهُنَّ لأَجْبَرْ تَ صُرَاحًا ، وَلَمْ تَقُلْ بِاكْتِسَابِ

مِنْ أُنَاسٍ لا يُرْتَضَونَ عَبِيدًا وَهُمُ فِي مَرَاتِبِ الأَرْبَابِ [100]

وهذا الحسد من النوع الثاني ، " وهو كراهية الفرد رؤية الغير أفضل منه في نعمة ، ولذلك فهو يتمنى الحصول على مثل هذه النعمة التي لدى الغير ، ولكن مع عدم تمني زوالها عنه ، ويسمى هذا النوع من الحَسَد بالغبطة ، وهو ليس مذمومًا مطلقًا ، بل هو محمود في أعمال البِرّ والخير " [101].

ومن هنا فإن ابن الرومي ليس حاســـدًا من هذا النوع ، تأكل النار كبده لرخاء الآخرين ، ولكنه يُحِبُّ أن يكون مثلهم ، دون أن تزول نعمتهم ، وليس هذا حسدًا ، ولو كان حسدًا فهو يطلب المعذرة ؛ لأنه تجرع مرارة الحرمان ، يقول :

لا تَلُومَنَّ حَاسِدًا ؛ أَلَمُ النَّفْـــــــــــــــسِ مِنَ البَخْسِ يَا أُخَيَّ شَدِيدُ[102]

ويسعد الحاسد بفقر غيره ، ويُغْضِبُهُ أن يرى سعادة العيش في عيون الآخرين ، وما كان ابن الرومي من هذا النوع من الناس ، " فقد كان شعوره بحرمان غيره ... كشعوره بحرمان نفسه ، ولو لم يكن بينه وبين المحروم صداقة "[103] ، ومن ذلك وصفه لهذا الحَمَّال الأعمى بما يُشْعِرُنَا بحُزْنِه من أجله ، يقول :

رَأَيــتُ حَـمَّـالاً مُـبِـيـنَ الـعَـمَـى يَـعْـثُـرُ بِـالأَكْـمِ وَفِـي الـوَهْـدِ
مُـحْـتَـمِـلاً ثِـقْـلاً عَـلَـى رَأْسِـــهِ تَضْـــعُـفُ عَـنْـهُ قُـوَّةُ الـجِـلْـدِ
بَـيـنَ جِـمَـالاتٍ وَأَشْـــبَـاهِـهَـا مِـنْ بَشَـــرٍ نَـامُـوا عَـنِ الـمَـجْـدِ
أَضْحَى بِأَخْزَى حَالَةٍ بَينَهُمْ وَكُلُّهُمْ فِي عِيشَةٍ رَغْدِ
وَكُلُّهُمْ يَصْدِمُهُ عَامِدًا أَو تَائِهَ اللُّبِّ بِلا عَمْدِ
وَالبَـائِسُ المِسْـــكِينُ مُسْـــتَسْـــلِمٌ أَذَلُّ لِـلـمَـكْـرُوهِ مِـنْ عَـبْـدِ
وَمَـا اشْـــتَـهَـى ذَاكَ وَلَـكِـنَّـهُ فَرَّ مِنَ اللُّؤْمِ إِلَى الجَهْدِ [104]

ومن يسمع هذه الأبيات لا يقول إنه حاسد لأنه يحزن لشقاء غيره ، وإجمالاً نقول إنه لو كان حاسدًا ؛ فهو حَسَدٌ من النوع الثاني .

وما يقال في الحســـد يقال في الحقد ، وهو إخفاء الكُرْه ، والعمل على إيذاء الغير ، وقد اعترف ابن الرومي على نفسه بالحقد ، حين قال :

شُكْرِي عَتِيدٌ وَكَذَاكَ حِقْدَي
لِلخَيرِ وَالشَّرّ بَقَاءٌ عِنْدِي [105]

ويمدح الحقد مرة أخرى فيقول :

وَمَا الحِقْدُ إِلاَّ تَوْأَمُ الشُّكْرِ فِي الفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَنْتَسِبْنَ إِلَى بَعْضِ
فَحَيثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَثَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ القَرْضِ [106]

وما كان ابن الرومي حاقدًا ، ولم يكن يتربص بالآخرين ليوقع بهم ، ولكنه كان مُهَانًا دائمًا من الآخرين ، فهم الذين يتربصون به ، ويُعَيِّرُونَه بما أقرَّهُ على نفسه ، فما يلبث إلا أن تثور ثائرته ويهجوهم ، وليس هذا حقدًا ، ولكنه نوع من السُّـخْط على أهل عصـره ، وفَرْقٌ كَبِير بين السُـخْط والحِقْد ؛ فشتان بينهما .

والأبيات التي امتدح بها الحقد تقابلها أبيات أُخَر يذم فيها الحقد وهي قوله :

يَـا مَـادِحَ الحِقْـدِ مُحْتَـالاً لَـهُ شَـــبَهًـا لَقَـدْ سَـــلَكْـتَ إِلَيـهِ مَسْـــلَكًـا وَعِـثَـا

يَـا دَافِنَ الحِقْـدِ فِي ضَـــعْفِي جَوَانِحِـهِ سَـــاءَ الدَّفِينُ الذِي أَمْسَـــتْ لَهُ جَدَثَا

الـــحِـــقْـــدُ دَاءٌ دَوِيٌّ لا دَوَاءَ لَـــهُ يَرِي الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمْرُهُ حُرِثَا [107]

إن مدحه للحقد يُذْهِب ذمّه له ، وقد يكون سـبب ذلك تأثره بمعاصـريه الذين درجوا على ذمّ الشـيء ومدحه في آنٍ من باب تحسـين القبيح وتقبيح الحسـن ؛ فقد أَلَفَّ إبراهيم بن محمد البيهقي كتابه (المحاسن والمساوئ) [108] ، وقد يكون تأثر به فمدح الحقد وذمّه ، كما فعل مع الورد والجُبْن وصفاتٍ أخرى .

وإجمالاً نسـتطيع أن نقول إنَّه ليس حاسـدًا ولا حاقدًا من الدرجة الأولى ؛ لأنه يُحِبُّ الخير للناس كما يُحِبُّه لنفسـه ، ويطلب العدالة في التوزيع [109] ، وإن كان حاسـدًا فإن عصـره ومجتمعه هما اللذان دفعاه دفعًا إلى هذا الخُلُق الذميم ؛ لأنه تجرَّعَ يومًا بعد يوم مرارة الفقر والأسـى والحرمان ، وكان يستحق أن يعيش في رغد ؛ لِمَا حَصَّلَهُ من ثقافاتٍ وعلوم ؛ لذا حسد هؤلاء الذين يتنعمون ، ولا يستحقون هذا النعيم .

ولقد دفعه تشـاؤمه إلى الهجاء المرير ؛ لأنه رأى محاسـن غيره مسـاوئ ؛ لسـخطه عليهم .

وإذا تركنا الحقد والحسد جانبًا وجدنا مرضًا نفسيًّا آخر هو مرض :

الوسْوَاس

الذِي عَرَفَهُ عنه معاصروه ، وأقره هو على نفسه حينما قال في هجاء الناشئ الأكبر :

يُـــرْجِـــفُ الـــقِـــرْدُ بـــأَنِّـــي زَائِـــلُ الـــعَـــقْـــلُ مُـــوَسْـــوَسْ

إِنْ أُوَسْـــــوَسْ فَـــحَـــقِـــيـــقٌ يُسْعَدُ القِرْدَ وَأُنْحَسُ [110]

والوسـواس نوع من الشَّـكِّ المتسـلط على المريض يجعله يراجع نفسـه في كل عمل يقوم به [111] ، وقد ظهر ذلك في شـعره ؛ فوسـواسـه الدائم بأنه لم يبلغ الغاية في شـعره ، جعله يرجع مرة أخرى فيتابع ويكرر قوله ؛ حتى يُنْهِكَ المعنى .

التَّعْوِيض

ذكرنا أمراضًـــا عديدة أُصِـــيبَ بها ابن الرومي ، ولا بُدَّ أَنَّ يكون لهذه الأمراض أثرها عليه وعلى نفسه وشخصيته ، وقد حاول الباحثون " أن يربطوا بين العبقرية والمرض الجسمي ، وحاولوا أن يربطوا بينهما وبين التشوهات الخِلْقية على أساس أن هذه التشوهات تُثِيرُ لدى صاحبها شعورًا بالقصـور أو بالنقص يدفعه إلى التغطية والتعويض عنه " [112] ، وهذا الشـعور يجعله يبالغ بادعاء أشـياء لنفسـه ليسـت فيه ، وقد كان مُتَّهَمًا بالعُنَّة ، ودفعه هذا إلى " تعويض ذلك النقص بكمالات مزعومة تُجَسِّدُهَا أعماله الفنية" [113] .

ومن هنا نجد أنه " قد ادَّعى فحولة جَلَبَها الفن وأنكرها الواقع " [114] ، فزَعَمَ أنه عمر بن أبي ربيعة (ت93هـــ) في عشقه ، وقال إن النِّساء شُغِفْنَ به حُبًّا ، وصَوَّرَ ذلك تصويرًا ناطقًا حيث قال :

كَـبَـتَـتْ رَبَّـةُ الـثَّـنَـايَـا الـعِـذَابِ تَـتَشَـــكَّـى إِلَـيَّ طُـولَ اجْـتِـنَـابِـي

وَأَتَـانِـي الـرَّسُـــولُ مِـنْـهَـا بِـقَـولٍ لَـمْ تُـبَـيِّـنْـهُ فِـي سُـــطُورِ الكِتَـابِ

أَيُّهَـا الظَّـالِمُ الـذِي قُـدَّرَ اللَّـــــــهُ بِهِ فِي الأَنَامِ طُولَ عَذَابِي

لَو عَلِمْتَ الذِي بِجِسْـمِي مِنَ السُّـقْـــمِ وَضُرِّ الهَوَى لَكُنْتَ جَوَابِي [115]

والكذب واضـح في هذه الأبيات ؛ فلِمَ كُلّ هذا العشـق ؟ وقد اعتراه الشـيب والصـلع وتقوُّس الظهر وضـعف البصـر وأمراض أخرى كثيرة وهو في بداية سـن البلوغ [116] الذي تشـغف النسـاء بالرجال عنده ؛ لأن " الدافع إلى التعويض عن الفشل يكون أقوى عادةً من الرغبة الأصلية المُحْبِطة ، ويؤدي ذلك إلى الإفراط والمغالاة في التعويض " [117] ، ولإحباطه في مغامراته النسـائية [118] ؛ فقد " لجأ إلى التسـامي بهذه الرغبات وتحقيقها خياليًّا " [119] من خلال الشـعر . يقول في قصـيدة أخرى :

زَارَتْ عَـلَـى غَـفْـلَـةٍ مِـنَ الـحَـرَسِ تُـهْـدِي إِلَـيَّ السَّـــلامَ فِـي الـغَـلَسِ

كَـأَنَّمَـا البَـدْرُ حِينَ قَـابَلَهَـا السْـــ ـــسَـعْـــــدُ تَجَلَّى فِي حَالِكِ الغَبَسِ

قَـالَـتْ : تَرَامَى بِنَـا إِلَيـكَ مِنَ الشْـــ ـــشَـــو قِ مُغَصٌّ بِالبَارِدِ السَّـــلِسِ

كَـمْ زَفْـرَةٍ لِـي تَـبِـيـتُ تُـنْـهِـضُ أَحْـ ـــشَـائِي ، وَدَمْعٍ عِلَيكَ مُنْبَجِسِ

وَأَنْـتَ لاهٍ بِـغَـيـرِنَـا ، وَلَـنَـا مِنْـــــكَ هَوًى مُمْسِكٌ عَلَى النَّفَسِ

عَـجِبْـتُ مِنْ ذَلَّتِي ، وَمِنْ قَلْبِـكَ الـ قَاسِي عَلَينَا ، وَخُلْقِكَ الشَّكِسِ [120]

وحينما نطالع هذه الأبيات نتنسم فيها أريج شعر امرئ القيس ، أو نرى فيها صورة صادقة لعمر بن أبي ربيعة ، الذي يُصَـوِّرُ نَفْسَـهُ معشـوقًا تسـعى إليه النسـاء ، ويحاولن الاقتراب منه ، ويبذلن كل جهدٍ ومشقة كي ينعمن بالقرب منه ، ويرضى عنهن .

إن الشـعور بالنقص أو العجز – في رأي آدلر – " سـبب جميع العلل العصـبية والأمراض العقلية ... والتخلص من هذا الشعور يتم إما بادعاء الرفعة والتظاهر بالعظمة ، وإما بمحاولة القيام بعمل يرفع قدر المرء في أعين الناس ؛ تعويضًا عما يشعر به في قرارة نفسه من نقص" [121].

ومن ثَمَّ فليس أمام ابن الرومي لمواجهة انصـراف النسـاء عنه وكرههن له إلا الرجوع إلى الذكريات ، والهروب من واقع أليم إلى خيال يتسـع لكُلّ ما يريد من رغبات , يهرب من واقعه الذي تعيّره النسـاء به إلى الخيال محاولاً إرضـاء غرائزه ، فهو كما يقول فرويد : " ينسـحب من واقع لا يُرْضِـي إلى دنيا الخيال هذه ... أعني أن الأعمال الفنية إشـباع خيالي لرغبات لا شـعورية شـأنها شأن الأحلام ؛ وهي مثلها محاولات توفيق ، حيث إنها بدورها تجتهد كي تتفادى أي صراع مكشوف مع قوى الكبت . ولكنها تختلف عـن منتجات الحلم النرجسية اللا اجتماعية من حيث إن المقصود بها إثارة اهتمام الغير، وأن بوسعها أن تستثير وتُرْضِـي فيهم بدورها الرغبات اللا شـعورية نفسـها " [122].

إن ابن الرومي في هذه القصـــص الغزلية المُدَّعَاة يُحَقِّقُ ما عجز عن تحقيقه على أرض الواقع ؛ فهو يتغلب على كُلّ ما يحول دونه وحياة المتعة ، ويتخلص من مســـئولياته وأعبائه ، ويُحَقِّقُ ذاته .

وكُلّ ما أورده من علاقات غرامية مع النســـاء ليس إلا حيلة من حيله الدفاعية ؛ يحاول بها تحقيق ما لم يســتطعه حقيقةً عن طريق الفن ، معتمدًا على التعويض Compensation ؛ محاولاً إشباع دوافعه النفسية عن طريق الخيال Fantasy [123] ، وقد دفعه شعوره بالنقص inferiority complex إلى المغالاة والمبالغة في الاتجاه المعاكس لِمَا يشـــعر به ، وهذه المبالغات ما هي إلا تعويض عن هذا النقص الكبير الذي يحس به ، وما هي إلا نوع من الحيل الدفاعية / ميكانيزمات الدفاع [124] التي يحاول بها أن يغطي هذا النقص أمام الآخرين .

ومن ثَمَّ فَلِمَ لا يفخر بما يفخر به غيره من الرجال من الفحولة , فأخذ يبالغ ، ويكذب على نفسه ، مصدِّقًا هذا الكذب قبل أن يُصَدِّقَهُ المتلقي ، وهو صادق مع نفسه من منظور الصدق الفني ؛ لأنه يُعَبِّرُ عما يتمنى أن يكون عليه بالفعل ؛ " فالأثر الأدبي قد يجسد حُلْم الأديب لا واقع حياته ... أو قد يكون صـورة من الحياة التي يريد الأديب أن يَهربَ من نطاقها " [125] ، ألا نسـتطيع أن نزعم أن ما يفعله ابن الرومي– بعد إحســاسـنا بخلله الجنســى – ما هو إلا نوع من الحُلْم بالمعنى الفرويدي؟ [126] ، والحُلْم نوع من التعويض ، يتكيَّف به الشـخص ، لا أقول مع مجتمعه ، وإنما مع نفسـه ، فعندما يُصَـوِّرُ الأديب ممارسـة جنسـية ، فقد يكون ذلك من منظور علم النفس فردًا يحاول إشباع غريزته الجنسية عن طريق استمتاعه ، الذي لا يُمَثِّلُ أكثر من مجرد توهُّم Fancy ، وليس حقيقة واقعة .

وقد عُرِفَ عن ابن الرومي الجبن والخوف الشـــديد ، ولكنه حاول إخفاء ذلك بادِّعاءات مزعومة ، فجعل نفسه كثير الأسفار، في قوله :

أَذَاقَتْنِيَ الأَسْفَارُ مَا كَرَّهَ الغِنَى إِلَيَّ ، وَأَغْرَانِي بِرَفْضِ المَطَالِبِ [127]

والمعروف أنه لم يسافر إلى أي مكان ، ولم يبرح بغداد طوال حياته .

وقد اعترف غير مرة بخوفه الشديد من ركوب البحر ، يقول :

وَأَمَّا بَلاءُ البَحْرِ عِنْدِي فَإِنَّهُ طَوَانِي عَلَى رَوعٍ مَعَ الرَّوحِ وَاقِبِ [128]

ويقول :

وَمَا أَنَا بِالرَّاضِي عَنِ البَحْرِ مَرْكَبًا وَلَكِنَّنِي عَارَضْتُ شُغْبَ المَشَاغِبِ [129]

لقد دفعه خوفه من البحر إلى أن يقول :

فَأَيسَرُ إِشْفَاقِي مِنَ المَاءِ أَنَّنِي أَمُرُّ بِهِ فِي الكُوزِ مَرَّ المُجَانِبِ [130]

وعلى الرغم من هذا الخوف من البحر ، والســـفر ، إلا أننا نجد ادعاءات كثيرة في شـــعره تُصَوِّرُ رحلاته المزعومة التي رسمها خياله ، وصَدَّقَهَا فنّه .

لقد ادعى أنه ذو حلم وصبر وأناةٍ ، على الرغم مما سيُلْحِقُهُ صبرُه به من أضرار في جسده ، وأن صـدره واسـع لا يضـيق بالناس وإن ضـاقت صـدورهم وأخلاقهم به ، ولكنه سـيؤذي الآخرين ويجهل عليهم إن أساءوا إليه ، يقول :

وَإِنّي لَذُو حِلْمٍ وَجَهْلٍ وَرَاءَهُ فَمَنْ كَانَ مُخْتَلاً رَضِيتُ لَهُ حَمْضِي

وَفِيَّ أَنَاةٌ لا تُفَاتُ بِفُرْصَةٍ لَهَا سِيرَةٌ مَوضُوعَةٌ وَهْيَ كَالرَّكْضِ

وَإِنّي لَصَبَّارٌ عَلَى الحَقّ يَعْتَرِي وَلَو كَانَ فِي صَبْرِي لَهُ مَا بَرَى نَحْضِي

إِذَا ضَاقَتِ الأَخْلاقُ أَفْضَتْ خَلائِقِي إِلَى سَعَةٍ ، مِثْلِي إِلَى مِثْلِهَا يُفْضِي [131]

وهذه ادعاءات باطلة لا تستند إلى حقائق ، بل إن ما عُرِفَ عنه في هذا المجال ينقضها نقضًا . ونستطيع من كل ما سبق أن نقول : إن شعور ابن الرومي بالنقص جعله يحاول تحقيق ما أعجزه في الواقع من خلال الفن .

التشاؤم

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر صلة ابن الرومي بالتشاؤم ، والتشاؤم أو الطِّيَرَة " شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها " [132].

والأدلة على تشاؤمه كثيرة ؛ فمن ذلك قصة الأخفش معه ، يقول صاحب (زهر الآداب) : " كان أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش ، غلام أبي العباس المبرد ، في عصر ابن الرومي شابًّا مترفًا ، مليحًا مستظرفًا ، وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول : قولوا لأبي الحسن مرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرج من داره ، وذلك سبب هجائه إياه " [133] . وهناك روايات أخرى ذكرها صاحب (زهر الآداب) تدل على تشاؤمه ، منها ما ذكره عليّ بن إبراهيم بن مسروق البلخي عن تطيُّره بسبب الأحدب الذي كان يجلس أمام باب داره ؛ فيرفض أن يخرج من داره ، حتى لو تَضَوَّرَ جوعًا هو وأسرته ، وكل ذلك بسبب التشاؤم الذي سيطر عليه [134].

ومما يدل على تطيره قوله :

أَيُّهَا المُتْحِفِي بِحُولٍ وَعورٍ أَينَ كَانَتْ عَنْكَ الوُجُوهُ الحِسَانُ ؟

قَدْ لَعَمْرِي رَكِبْتَ أَمْرًا مُهِينًا سَاءَنِي فِيكَ أَيُّهَا الخُلْصَانُ

فَتْحُكَ المِهْرَجَانَ بِالحَوَلِ وَالعُو رِ أَرَانَا مَا أَعْقَبَ المِهْرَجَانُ

كَانَ مِنْ ذَاكَ فَقْدُكَ ابْنَتِكَ الحُرْ رَةَ مَصْبُوغَةً بِهَا الأَكْفَانُ

لا تُصَدِّقْ عَنِ النَّبِيِّينَ إِلاَّ بِحَدِيثٍ يَلُوحُ فِيهِ البَيَانُ

فَدَعِ الهَزْلَ وَالتَّضَاحُكَ بِالطِّيـ رَةِ ؛ فَالنُّصْحُ مُثْمِنٌ مَجَّانُ

أَتَرَى مَنْ يَرَى البَشِيرُ بَشِيرًا يَمْتَرِي فِي النَّذِيرِ يَا وَسْنَانُ

خَبَّرَ اللهُ أَنَّ مَشْأَمَةً كَا نَتْ لِقَومٍ وَخَبَّرَ القُرْآنُ

أَفَزُورُ الحَدِيثِ تَقْبَلُ أَمْ مَا قَالَهُ ذُو الجَلالِ وَالفُرْقَانُ ؟[135]

وقد قال القصيدة حين حضر مِهْرجان ابن المسيب سنة ثمان وسبعين ؛ لأنه عندما دخل عليه وجد في إحدى جواريه صبيه حولاء وعجوزًا في إحدى عينيها نكتة ؛ فتطيَّر ولم يُظْهِرْ أمره ، وبعد مدة قصيرة من انتهاء المِهْرجان مات لابن المسيب ابنة ، وجفاه القاسم بن عبيد الله ؛ فرأى ابن الرومي أن سبب هذه النكبات نَحْسَ الجاريتينِ ، وكتب هذه الأبيات [136].

والنماذج كثيرة ، وما ذكرناه على سبيل التمثيل لا الحصر ، فما مِنْ مترجم لابن الرومي إلا وذكر رواية أو أكثر تدل على تطيره ، وهذا دلالة على مرضه ؛ " فالرجل السليم لا يَتَطَيَّر ولا يتشاءم ؛ لأنه ينتظر من الدنيا خيرًا " [137].

لقد وُلِدَ ابن الرومي وهو يحمل منظاره ذا اللون الخاصّ به ، لأن تركيبه الفيزكيميائي يعطي مثل هذه النتيجة ؛ فهو محصول لذلك التآلف بين أجزاء كيانه ، وهو لا يتركنا نُفَكِّرُ طويلاً للحكم على الوجود ، بل يدلُّنَا على سخف الحياة ، وفراغ الوجود منذ ميلاد الطفل [138] ، يقول :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءَ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ [139]

ثم يؤكد بالبرهان سبب هذا البكاء من منظور متشائم :

وَإِلاَّ فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا ... لأَفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ

إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ ... بِمَا سَوفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ [140]

وشاعرٌ أُصِيبَ بما أصيب به ابن الرومي من مصائب وحرمان ، لا بُدَّ أن يتطيَّر، ولكنه جعل الآخرين يتطيرون منه ، فكان مصدرًا للنحس والشؤم ؛ فاجتنبه الناس وكأنه منبوذ .

الجُبْن . الفُوبْيَا PHOBIA

لقد انبثق عن التشاؤم مرض آخر وهو الفوبيا أو الجبن ، ولا بُدَّ أن يكون المُتَطَيِّر جبانًا ؛ لأنه ينظر إلى الدنيا بعين سوداء ، ولا يرى فيها خيرًا ؛ فالجبن ابن شرعي بكر للتشاؤم " [141] ، والمتطير دائمًا خائف .

وقد رفض ابن الرومي الدعوة التي وجهها له أحمد بن ثوابة لكي يمدحه ، يقول :

دَعِ اللَّومَ ، إِنَّ اللَّومَ عَونُ النَّوَائِبِ ... وَلا تَتَجَاوَزْ فِيهِ حَدَّ المُعَاتِبِ [142]

ثُمَّ بَيَّنَ سبب رفضه ، وهو خوفه من بلاء البحر قائلاً :

وَأَمَّا بَلاءُ البَحْرِ عِنْدِي فَإِنَّهُ ... طَوَانِي عَلَى رَوعٍ مَعَ الرَّوحِ وَاقِبِ

وَلَو ثَابَ عَقْلِي لَمْ أَدَعْ ذِكْرَ بَعْضِهِ ... وَلَكِنَّهُ مِنْ هَولِهِ غَيرُ ثَائِبِ

وَلِمْ لا وَلَو أُلْقِيتُ فِيهِ وَصَخْرَةً ... لَوَافَيتُ مِنْهُ القَعْرَ أَوَّلَ رَاسِبِ

وَلَمْ أَتَعَلَّمْ قَطُّ مِنْ ذِي سِبَاحَةٍ ... سِوَى الغَوصِ وَالمَضْعُوفُ غَيرُ مُغَالِبِ

فَأَيسَرُ إِشْفَاقِي مِنَ المَاءِ أَنَّنِي ... أَمُرُّ بِهِ فِي الكُوزِ مَرَّ المُجَانِبِ

وَأَخْشَى الرَّدَى مِنْهُ عَلَى كُلِّ شَارِبٍ ... فَكَيفَ بِأَمْنِيهِ عَلَى نَفْسِ رَاكِبِ [143]

إنه يخاف من الماء ، وهذا دلالة على مرضـــه ؛ فهو يتخيل " ويتمثَّل أمامه ما يتخيله ويجسده لنفسه كأنه واقع يُحَسُّ ويُلْمَسُ "[144]. يقول مُصَوِّرًا خوفه من الماء :

أَظَلُّ إِذَا هَزَّتْهُ رِيحٌ وَلأْلأَتْ لَـهُ الشَّمْسُ أَمْوَاجًا طِوَالَ الغَوَارِبِ

كَأَنِّي أَرَى فِيهِنَّ فُرْسَانَ بُهْمَةٍ يُلِيحُونَ نَحْوِي بِالسُّيُوفِ القَوَاضِبِ [145]

لقد تخيَّل الأمواج وكأنها فُرْسان تريد أن تقتله ؛ وذلك بسبب سيطرة التشاؤم على نفسه ؛ وجعله هذا الخوف أسير بيته لا يفارقه ؛ وتَرَتَّبَ على ذلك الفقر والعوز واستجداء الثوب الذي يستر عورته .

المبحث الرابع : علاقة الهجاء بأمراض ابن الرُّومي

إنَّ كُلّ ما مُنِيَ به الرجل من أمراضٍ وعاهات جعله حانقًا على الناس ، كارهًا لهم ، ساخرًا منهم ، هازئًا بهم ؛ فأصبح الهجاء نتيجة مباشرة لأمراضه ، لقد أصبح مريضًا نفسيًّا ، يَسُبُّ الناس بسببٍ وبدون سبب ، ويضحَكَ منهم ، ويُضْحِكَ الآخرينَ عليهم ، ويَصْدُرُ في كُلّ ذلك عن حقدٍ دفين نَتَجَ عَمَّا قاساه من مرارة المرض وضنك العيش .

لقد اشـــتهر بالهجاء ، وعده كثيرٌ من النقاد هجَّاء العرب ، ومن يقرأ ديوانه يجد أن الغرض الغالب عليه هو الهجاء ، وقد هجا كل الناس في قوله :

آيَسْتُ مِنْ دَهْرِي وَمِنْ أَهْلِهِ فَلَيسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُرْضَى

إِنْ رُمْتُ مَدْحًا لَمْ أَجِدْ أَهْلَهُ أَو رُمْتُ هَجْوًا لَمْ أَجِدْ عِرْضَا [146]

وحينما سئل عن سبب ذلك قال :

قِيلَ لِي : لِمْ ذَمَمْتَ كُلَّ البَرَايَا ؟ وَهَجَوتَ الأَنَامَ هَجْوًا قَبِيحَا ؟

قُلْتُ : هَبْ أَنَّنِي كَذَبْتُ عَلَيهِمْ فَأَرُونِي مَنْ يَسْتَحِقُّ المَدِيحَا ؟ [147]

وقد هجا ابن الرومي كل من صادفه في طريقه من خلفاء ووزراء ، " فلم يكن يستطيع أن يبقى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير ؛ فقد كان يكفي كُلّ منهما ألا ينفذ إليه الجائزة ، أو يُقَلِّلُ منها ؛ فإذا هو خصيمٌ لدود ، وإذا هو يَسُلُّ لسانه عليه ، ويُبْرِي شعره سهامًا مدمية "[148] ، ولا شَكَّ أن دناءته هي التي دفعته للهجاء ؛ " لأن مَنْ كان أميل للدناءة حاكى أفعال الأدنياء ناظمًا قصائد الهجاء "[149].

وقد هجا الخلفاء العباسيين كثيرًا ، "وربما كان المعتز أهم الخلفاء الذين تعرض لهم بالهجاء "[150].

وقد أرجع كثيرٌ من الباحثين هجاءه للعباسيين إلى تشيعه الذي منعه أن يَمْثُلَ بين أيديهم مادحًا لهم .

وقد هجا كثيرون ، منهم : القاسم بن عبيد الله ، إسماعيل بن بلبل ، ابن المسيب ، أحمد بن أبي طاهر، آل طاهر جميعًا ، أبا سهل بن نوبخت ، عبيد الله بن العباس ، إبراهيم بن المدبر، وهب بن سليمان ، محمد بن عبد الله بن طاهر، أبا إسحق بن إبراهيم ، ابن أبي الجهم ، آل وهب جميعًا ، ابن الفرات ، أبا الفياض سوار بن أبي شرعة ، ابن الفرات ، سعيد الصغير، خالد القحطبي

وكل أسرته ، البحتري ، وكل ممدوحي البحتري ، الأخفش ، ابن أبي طالب ، شُنْطُف ، أبا القاسم السرجي ، أبا علي بن أبي قرة ، أبا المستهل ، البيهقي ، الجارية دريرة ، كنيزة ، نُجْح الخادم ، سالم بن عبد الله بن عمر، علي بن عيسى ، عمرو النصراني ، نفطويه ، يعقوب البريدي ، ابن سيرين ، ابن خنساء .

وكُلّ من سبقت أسماؤهم إما خلفاء أو وزراء أو أمراء أو أبناء أمراء أو نُحَاة أو كُتَّاب أو عبيد وجواري ، ومن خلال استقراء الشعر الهجائي الذي ورد فيهم نجد أنه يرميهم بكل فاحشة فهم أبناء العهر، ولا يستطيعون فَهْم شعره لجهلهم ، ويجاهرون بالفسق وغيره من الأفعال الآثمة التي نستحي أن نأتي لها بشواهد تجرح حياء القُرَّاء .

كما هجا الشعراء جميعًا في قوله :

يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ مَسَبَّةً ... مِنَ اللهِ مَسْبُوبٌ بِهَا الشُّعَرَاءُ

وَمَا ذَاكَ فِيهِمْ وَحْدَهُ بَلْ زِيَادَةٌ ... يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُ الأُمَرَاءُ [151]

وَعَرَّضَ بهم وبكذبهم في هجاء خالد القحطبي ، يقول :

عَرَّضْتَ لِلشُّعَرَاءِ عَرْضَكَ عَامِدًا ... كَيمَا يُقَالَ : تَكَذُّبُ الشُّعَرَاءِ [152]

وكما هجا البحتري في قوله :

البُحْتُرِيُّ ذَنُوبُ الوَجْهِ نَعْرِفُهُ ... وَمَا رَأَينَا ذَنُوبَ الوَجْهِ ذَا أَدَبِ

الحَظُّ أَعْمَى وَلَولا ذَاكَ لَمْ نَرَهُ ... لِلبُحْتُرِيِّ بِلا عَقْلٍ وَلا حَسَبِ [153]

وهجا اللغويين ، مثل الأخفش الذي عَرَضَ عليه شعرًا فلم يحمده ، فهجاه قائلاً :

قُلْتُ لِمَنْ قَالَ لِي :عَرَضْتَ عَلَى الـ ... أَخْفَشَ مَا قُلْتُهُ فَمَا حَمِدَهْ

قَصَّرْتَ بِالشِّعْرِ حِينَ تَعْرِضُهُ ... عَلَى مُبِينِ العِمَى إِذَا انْتَقَدَهْ [154]

وله هجاء كثير في خالد القحطبي ، وكله مليء بالفحش ، فقد اتهمه بضياع نسبه :

كَيفَ أَهْجُو امْرَأً كَرِيمًا لَئِيمًا ... وَاحِدَ الأُمِّ خِلْفَةَ الآبَاءِ ؟

كَيفَ أَهْجُو مُذَبْذَبًا بَينَ شَتَّى ؟ ... لا إِلَى هَؤُلا وَلا هَؤُلاءِ ؟ [155]

وفيه بعض الصور الساخرة التي استطاع بها تشويهه ، ومسخه ، وجعله أضحوكة يتندر بها الناس ، يقول :

أَخَالِدُ أَعْيَيتَ الهِجَاءَ وَفُتَّهُ ... فَقَولِي وَإِنْ أَبْلَغْتُ فِيكَ مُقَصِّرُ

جَمَعْتَ خِلالَ الشَّرِّ وَالعُرِّ كُلَّهَا ... وَأَنْتَ بِهَا أَولَى وَأَحْرَى وَأَجْدَرُ [156]

ونلاحظ أنه يُلْحِقُ بمهجوه كُلّ المقابح ، ويُلْبِسُهُ كُلّ الرذائل ، فهو يسلبه " الفطنة والكياسة والعلم ، ويُلصِق به كل عيوب الحضارة التي يجمعها التبذُّل والتهَالُك"[157].

وقد مدح طلبًا لنوال الرزق ، وهذا – في حدّ ذاته – يُعَدُّ هجاءً للممدوح ، يقول :

مَدِيحُكَ مَنْ تَبْتَغِي رِفدَهُ ... هِجَاءٌ ، وَإِنْ كُنْتَ لا تُظْهِرُهْ

لأَنَّكَ طَالَبْتَ مَا عِنْدَهُ ... كَأَنَّكَ تَرْقِيهِ أَو تَسْحِرُهْ [158]

ويجب على الممدوح أن يُعْطِي دون أن ينتظر المديح :

لَيسَ الكَرِيمُ الـذِي يُعْطِي عَطِيَّتَـهُ ... عَلَـى الثَّنَـاءِ وَإِنْ أَغْلَـى بِـهِ الثَّمَنَـا
بَلِ الكَرِيمُ الذِي يُعْطِي عَطِيَّتَهُ ... لِغَيرِ شَيءٍ سِوَى اسْتِحْسَانِهِ الحَسَنَا [159]

كما هجا التُّجَّار ، حيث يقول فيهم :

وَتِجَـــارٍ مِـــثْلُ البَـــهَائِـــمِ فَـــازُوا ... بِـالمُنَى فِي النُّفُـــــوسِ وَالأَحْبَـابِ
فِيهِـــمُ لُكْنَـــةُ النَّـــبِـــيطِ ، وَلَكِـــنْ ... تَحْتَـــهَا جَـــاهِلِيَّـــةُ الأَعْـــرَابِ
أَصْبَحُوا يَلْعَبُونَ فِي ظِلِّ دَهْرٍ ... ظَاهِرِ السُّخْفِ ، مِثْلِهِمْ لَعَّابِ [160]

فهؤلاء التُّجَّار تَسَـنَّمُوا بأموالهم المجد ، وعلى الرغم من لكنة العجم ، وما تُوحِي به من رقة ونعومة ، إلا أن هذه اللكنة تحتها جاهلية الأعراب .

كما هجا المغنيين بقبح الصوت والمنظر ، وشَبَّهَ صوت أحدهم بالعواء ، يقول :

لَيسَ كَالسُّـكْرِ دَوَاءٌ ... لِغِنَاءٍ كَـالـدَّوَاءِ
فَـاسْـــــقِنِـي عِشْـــــرِيـنَ رَطْـلاً ... لا تَشُبْـهُنَّ بِمَاءِ
فَلَعَلَّ السُّكْرَ يَكْـفِيـ ... ـنِي أَذَى هَذَا العُـوَاءِ [161]

وشبه آخر وهو يحرك فكيه عند الغناء بفكي بغل طحان :

وَتَحْسَبُ العَينُ فَكَّيهِ إِذَا اخْتَلَفَا ... عِنْدَ التَّغَنُّمِ فَكَّي بَغْلِ طَحَّانِ [162]

كما هجا القضاة ، ووصفهم بأنهم طوال القلانس ، يقول :

أَلا إِنَّـمَـا الـدُّنْـيَـا كَـجِـيـفَـةِ مَـيـتَـةٍ ... وَطُـلاَّبُـهَـا مِـثْـلُ الـكِـلابِ الـنَّـوَاهِـسِ
وَأَعْظَمُـهُمْ ذَمًّا لَهَا وَأَشَدُّهُمْ ... بِهَا شَغَفًا قَومٌ طِوَالُ القَلانِسِ [163]

ودار هجاؤه لأصحاب المهن السابقة حول معاني تقليدية ، جاءت عِنْدَ مَنْ سبقه مِنَ الشعراء ، مثل : الكذب ، والجُبْن ، والفِسْق .

وكل ما سبق هجاء بصفات مكتسبة ليست أصيلة في الإنسان ، ويمكن أن يتخلَّى عنها ، لكن هل اقتصر هجاؤه على ذلك ؟! كلا . لقد هجا أصحاب العاهات الجسدية وسخر منهم كثيرًا في شعره ؛ لأنه مدفوع إلى التشفي والانتقام من كل من حوله . من ذلك قوله في أبي علي بن أبي قرة :

أَقِصَـــــــرٌ وَعَـــــوَرٌ ... وَصَـــــلَـــعٌ فِـــي وَاحِـــدِ ؟
شَوَاهِدٌ مَقْبُولَـةٌ ... نَـاهِيكَ مِنْ شَوَاهِدِ [164]

مسخت هذه الصورة المهجو مسخًا تامًّا ؛ إنه يعيب عليه صلعه مع أنه أصلع ، ودفعه إلى ذلك أسباب نفسية ، فهو لا يرى عيب نفسه ، ويُعَيِّرُ الآخرين بما كان ينبغي أن يستنكره من نفسه أولاً ، وأرى أنه لم ينسَ صلعه المبكر ، الذي مُنِيَ به في صدر شبابه ، ويُعَدُّ هذا نوعًا من الإسقاط ، فقد أسقط ما كرهه في نفسه على غيره ، ليُقْنِعَ نفسه بأن الناس يشبهونه في القبح ؛ فكأنه يَسُبُّ غيره ويسخر منه قبل أن يَسْخَرَ الناس منه .

يقول في هجاء أبي حفص الوراق :

يَـا صَـــلْـعَـةً لأَبِـي حَـفْـصٍ مُـمَـرَّدَةً ... كَـأَنَّ سَـــاحَـتَـهَـا مِـرْآةُ فُـولاذِ
تَرِنُّ تَحْـتَ الأَكُفِّ الوَاقِعَـاتِ بِـهَـا ... حَـتَّـى تَـرِنَّ لَـهَـا أَكْـنَـافُ بَـغْـدَاذِ
كَمْ مِنْ غِنَاءٍ سَمِعْنَا فِي جَوَانِبِهَا ... مِنْ حَاذِقٍ بِلُحُونِ الصَّفْعِ أُسْتَاذِ [165]

لقد شبه الصلع بالمرآة ، وهذا دلالة على نقاء رأسه من الشَّعْر؛ فهي بيضاء كالمرآة لامعة عاكسة للضوء ، وهو لم يسخر من الصَّلَع فقط ، ولكن سَخَرَ من الرَّأْس كلها ؛ فهي خاوية لا شيء فيها ، ودليل ذلك قوله تَرِنُّ ، وقد تعوَّد هذا الرجل على الصفع ، ويتضح ذلك من (كم) في بداية البيت الثالث ، ومن يسمع هذه الأبيات لا يملك إلا أن يضحك ويستغرق في الضحك .

وأيضًا هجا العميان ؛ فمُجَالَستهم تُعْدِي العَمَى كما يقول :

مُجَالَسَةُ العُمْيِ تُعْدِي العَمَى ... فَلا تَشْهَدَنْ لَهُمْ مَشْهَدَا

فَإِنْ أَنْتَ شَاهَدْتَهُمْ مَرَّةً ... فَكُنْ مِنْهُمُ الأَبْعَدَ الأَبْعَدَا (166)

ومن هجائه الساخر هجائه للأحدب الذي كثرت مضايقاته له ، فعندما يَهُمُّ بالخروج من بيته يجد هذا الرجل جالسًا بباب الدار ؛ فيتشاءم ويمكث في بيته ، فما كان من ابن الرومي إلا أن صَوَّرَهُ تلك الصورة الساخرة :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ ، وَطَالَ قَذَالُهُ ... فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُصْفَعَا

وَكَأَنَّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً ... وَأَحَسَّ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا (167)

لم ترق ابن الرومي صورة هذا الأحدب ، وحَرَّكَتْ في نفسه إحساسًا بالتشاؤم ؛ فراح يسخر من عاهته في غير رحمة ، ومن عادة الأسوياء الشفقة على صاحب العاهة ، ولكن الشاعر يجعلك تذهل عن عاهته ، والتعاطف معه ، إلى الضحك الشديد منه ، لأنه ضعيف ، كل مَنْ يلقاه يصفعه على قَفَاه ، فقِصَر أخادعه ، وطُول قذاله ، ليس عيبًا خِلْقِيًّا فيه ، ولكنه ثَبَتَ على هذه الهيئة خشية أن يُصْفَعَ ، مرةً بعد مرة .

وقد سخر في هذه الصورة من كل أحدب ، فلا تكاد تقع عيناك على أحدب إلا وتقفز إلى مخيلتك هذه الصورة الفَكِهَة ، حتى إنك لتجد نفسك يتنازعها إحساسان متناقضان ، إحساس بالشفقة عليه ، وإحساس آخر بالضحك منه .

لقد خَلَّدَ وصف الأحدب بطريقة أظهرت غلظة قلبه في التعامل مع أصحاب العاهات ، قبل فيكتور هوجو الذي رَقَّ لحاله فكتب روايته الشهيرة (أحدب نوتردام) ، وقد أثرت صورة الأحدب في المتنبي (ت354هـ) ، فقال ساخرًا من كافور :

أَيدٍ مُقَطَّعَةٌ حَوَالِي رَأْسِهِ ... وَقَفًا يَصِيحُ بِهَا : أَلا مَنْ يَصْفَعُ ؟ (168)

وقد برع في الهجاء ، حتى أصبحت عينيه لا ترى إلا العيوب ، ومن يفعل ذلك لا بُدَّ أن يكون به نقص لأن :

تَأَمَّلُ العَيبِ عَيبُ ... مَا فِي الذِي قُلْتُ رَيبُ

كَمْ عَائِبٍ كُلَّ شَيءٍ ... وَكُلُّ مَا فِيهِ عَيبُ (169)

ولم يقتصر هجاؤه على الناس ، بل هجا من مظاهر الطبيعة القمر والورد . وسَبَب هجاء القمر التشاؤم الشديد ، الذي سيطَرَ عليه ، وجعله يرى من مظاهر الجمال مصدرًا للنحس والشؤم والهجاء ، يقول :

لَو أَرَادَ الأَدِيبُ أَنْ يَهْجُوَ البَدْ ... رَ رَمَاهُ بِالخُطَّةِ الشَّنْعَاءِ

قَالَ : يَا بَدْرُ أَنْتَ تَغْدِرُ بِالسَّا ... رِي ، وَتُزْرِي بِزَورَةِ الحَسْنَاءِ

كَلَفٌ فِي شُـــحُوبِ وَجْهِـكَ يَحْكِي نُكَتًا فَوقَ وَجْنَةٍ بَرْصَاءِ [170]

كما جعل الورد ، الذي مدحه الشـعراء بأنه يُشْـبِهُ في احمراره خدود المحبوبة عند الخجل ، لون الدم ، وفي وسطه روثًا ، يقول :

وَقَـائـلٍ : لِمْ هَجَوتَ الوَرْدَ مُعْتَمِـدًا ؟ فَقُلْتُ : مِنْ بُغْضِـــهِ عِنْدِي وَمِنْ سَـــخَطِهْ

يَـا مَـادِحَ الوَرْدِ لا يَنْفَـكُّ عَنْ غَلَطِـهْ أَلَسْتَ تُبْصِرُهُ فِي كَفِّ مُلْتَقِطِهْ

كَأَنَّهُ سُرمُ بَغْلٍ حِينَ يُخْرِجُـهُ عِنْدَ الرِّيَاثِ وَبَاقِي الرَّوثِ فِي وَسَطِهْ [171]

وعلاوة على ذلك ذَمَّ بعض الأمراض الروحية التي تصـيب نفس الإنسـان ، مثل الحسـد والحقد والجُبْن ، ومدحها في نفس الوقت ، وسـبب ذلك أنه كان يتعاطى الفلسـفة ، وأراد أن يُظْهِرَ قدرته على الجدل والإقناع ؛ فأخذ يمدح ببراهين وحجج ، ثم يقدح ببراهين وحجج ؛ فإن استطاع أن يُقْنِعَ القارئَ كُلّ مرة فقد نجح .

وعلى كُلٍّ فقد هجا كُلّ من قابله في طريقه ؛ لأنه يعتقد دائمًا أنه الأعلى والأحسن والأفضل ، فهو كما يقول عن نفسه :

أَنَا الذِي تُحْشَدُ الرُّوَاةُ لَـهُ فَكُلُّ أَيَّام دَهْرِهِ جُمَـعُ [172]

أما غيره من الناس فهم لئام خساس ، يقول :

لِئَـامٌ كَـالـخَـنَـازِيرِ خِسَـاسٌ كَـاليَرَابِـيع [173]

وثمة أمور اجتمعت لابن الرومي فجعلته صاحب طبيعة شاذة ، منها : اضطراب أعصابه ، ومرضـه الجنسـي والجسـدي والعصـبي ، فضـلاً عن كثرة ما أُصِـيبَ به من أمراض ، وعدم اكتراث الناس به ، وتشـاؤمهم منه ، كُلّ ذلك وغيره جعله يعيش بين الناس بصـدرٍ مكلوم ، غير مُبَالٍ بأحد ، لا يجد راحته إلا في إسقاط عيوبه النفسية والجسدية والجنسية على الآخرين ساخرًا هاجيًا شامتًا ، لا يردعه وازع من خُلُق أو عُرف ، ولا تَحُدّه حدود .

ولعلَّ كل هذه الأرزاء التي مُنِيَ بها ، وجعلته مُعَذَّبًا في دنيا الناس ، أحســنتْ إلى فنه الشعري من حيث لا يدري ؛ حيث أذكت في نفسه جذور الضجر والتمرُّد والسخرية ؛ فكان فنانًا لا يُبَارى في هجائه .

وهناك خيطٌ رفيع يربط ما بين الموهبة والنبوغ ، إنه تهيُّؤ النفس فطريًّا لهذا النبوغ أيًّا كان نوعه وميدانه ؛ فكُلّ نابغ موهوب ، وليس كُلّ موهوب نابغًا ؛ فالنبوغ شـــيء فوق الموهبة ، لا تصـــادفه في كل النفوس الموهوبة ، وإنما أنت واجده – ولا ريب – في نفوس أولئك الذين رُزِقُوا استعدادًا خاصًّا له ، وفُطِرُوا عليه .

وابن الرومي من أولئك الذين رُزِقُوا النُّبوغ وفُطِرُوا عليه ، وإن كُنْتَ تأنف أن تقول فيه ذلك إن نظرتَ إليه ، لكنها العبقرية التي تُرْغِمُ الناسَ على الانقياد إلى الحقّ والاعتراف بالفضـــل ، ألم يقل الرجل :

وَلَسْتُ مُقَارِعًا جَيشًا وَلَكِنْ بِرَأْيِي يَسْتَضِـيءُ ذَوِو القِـرَاع

وَإِنِّـي لَلقَوِيّ عَلَى المَعَالِي وَمَا أَنَا بِالقَوِيّ عَلَى الصِّرَاع [174]

نعم . لم يكن الرجل وسيمًا ولا شريفًا ولا عفيفًا ، وإنما هو دون ذلك جميعًا بمقاييس الناس ، ومع ذلك لا تملك إلا أن تُكَبِّرَهُ بمقاييس الفن ، ولِمْ لا ؟ والفن الحقّ مُحَايد لا يُحَابِي ولا يُجَامِل ، فكم مِنْ عبقري ترفض أن تعامله لغرابة سلوكه ، واختلاف أطواره ، وكم من عبقري تتلبسه حالة من الجنون فلا ندري أهو هو أم هو غيره ؟

ومهما يكن من أمر فإن ابن الرومي كان موهوبًا في شعره الهجائي ؛ حيث نجده يستنفر القارئ بإبداعه في هذا المجال ؛ حتى يرضَى عنه .

وليس كل الشعراء مطبوعين على السخرية ، ولقد استطاع ابن الرومي أن يجعل من خصومه أمثولة يتضاحك عليها الناس ، ووصل إلى غايته من الانتقام ، وأوجع مهجوه وآلمه ، وانتصف لنفسه من حُسَّاده ، ولم يكتفِ بذلك ، بل سخر من نفسه أيضًا .

وصوره الساخرة لاذعة مقذعة ، تثيرُ ضحك القارئ والسامع ، وهو يتفاعل مع المواقف التي يواجهها ، ويُوجِدُ لها ما يناسبها من الأساليب ، برؤيته المتجددة وخياله المبتكر ، وكما " يُعَبِّرُ الإنسان عما في ضميره غاضبًا أو هادئًا أو جادًّا ، فإنه يُعَبِّرُ كذلك متهكمًا ساخرًا ؛ لأن التهكم وسيلة للتنفيس عن النفس أمام صعاب الحياة ومساوئ المجتمع وما تحسه من حاجة ملحة لنقد بعض مظاهر النقص في هذه الحياة "[175] .

والسخر هو ردّ فعل الإنسان أمام " ظُلم الدهر ، وقسوة الطبيعة ، وعيوب المجتمع ، ونقائص الناس ، ونقائصه هو . يسخر بهذه جميعًا ، لا يَسُبّها ، ولا يحتد عليها ، ولا يثور بها ، بل يتأملها بهدوء ، ويُبْصِر سخافتها ، ويبصر تناقضها ، بل يُبْصِر تفاهتها وصغرها ، فيعلو عليها جميعًا ، ويتحدث عنها بابتسامة هادئة ، جليلة ، مستخفة ، هازئة . وحديثه ينبغي ألا يكون محتدًّا ثائرًا ، وألا يكون سيئ اللفظ بذيئًا ، وإلا لَمَا كان سخرًا ، فالسخر هو الهدوء التامّ والأدب التامّ ، والعلو التامّ على مصائب الدنيا "[176] .

وسخرية ابن الرومي وليدة مرضه النفسي ، وهي الوجه الآخر لسُخْطِه ، يُخْفِي بها عجزه وضعفه ؛ ويُدَافِعُ عن نفسه ، وهي تختلف عن التهكُّم ، فالتهكُّم استهزاء في قوة وتقحُّم ، أما السخرية فتنتج من التناقُض والتباعُد بين الأشياء .

ولمْ لا يسخر ، وهو يرى أنه ظُلِمَ في هذه الحياة ؛ فلم يبلغ فيها مبلغًا كان يأمله ، ولا امتلك فيها شروى نقير ، وكان سخريته مظهرًا لإخفاقه ، بل حقده وسوء طويته ، كما كانت إحدى مظاهر استجابته الانفعالية لهذه الأمراض التي فاضت بها نفسه ، وإحدى وسائله في التحرر من أعباء واقعه الشخصي التَعِس ، ولا نعدو الصواب إن قلنا : وواقعه الاجتماعي المعيش ، بل هي إحدى سُبُل الراحة والاستمتاع ؛ لأنها تحقق له قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس ، قد يصل إلى حدّ الغلو والغرور في كثيرٍ من الأحيان .

ولأنه كان يجد في نفسه راحة إذا وقع على العيوب والسوءات ، سَوَّلَتْ له نفسه أن يرى في الناس ما يُحَقِّقُ له قدرًا من التوازن الداخلي ؛ فراح يُطْلِقُ مخيلته في الناس ليرى في وجوههم ما يَوَدُّ أن يراه من قُبْحٍ وتشويه .

ولعلك إن نظرت في وجوه أولئك الذين مسخهم بسخريته تخالفه الرأي ، ولكن أصحاب النقص والأمراض النفسية يرون – بسوء طويتهم ، وفساد نيتهم ، وخطأ اعتقادهم ، وعين كراهيتهم – للآخرين ما يودون أن يكون في الناس ، ومن طلب عيبًا وجده ، فلو أنك طلبتَ من عشرة من

الناس أن يصف كُلَّ واحدٍ منهم شخصًا ما وصفًا ساخرًا ، لوقع بين يديك عشرة شخصيات مختلفة ؛ حيث إن كُلاً من العشرة أفرغ فكره ونشأته وثقافته وبيئته ونفسيته فيما وَصَفَ وصَوَّرَ ، وسوف تجد ، إن أنعمت النظر ، أن أشد الوصف إقذاعًا ، وأكثر الصور إضحاكًا ومسخًا لمَنْ يُعَانِي من بعض الأدواء النفسية الدفينة ، التي لا يمكنك أن تقف عليها إلا باستقصاء شديد لشخصيته ونشأته وبيئته وعلاقاته مع الآخرين .

ويعتني ابن الرومي في هجائه الساخر بوصف الصفات والعيوب الخِلْقية ، ويُجَسِّمُهَا ليثير الضحك ، وقد بَالَغَ حين هجا عمرو النصراني ، ووضعه في صورة مضحكة ، وضَخَّمَ أنفه ، وسَلَّطَ الضوء عليها ، حتى يَضْحَكَ السامعون ، ويُخْجِل المهجو ؛ فيفرّ هاربًا ، لقد جعل أنفه مرة آلة للجود والبأس ، وتارة أخرى كالسيف يخوض بها المعارك ، يقول :

يَا عَمْرُو فَخْرًا فَقَدْ أُعْطِيتَ مَنْزِلَةً ... لَيسَتْ لِقَسٍّ وَلا كَانَتْ لِشَمَّاسِ
لِلنَّاسِ فِيلٌ إِمَامُ النَّاسِ مَالِكُهُ ... وَأَنْتَ يَا عَمْرُو فِيلُ اللهِ لا النَّاسِ
عَلَيكَ خُرْطُومُ صِدْقٍ لا فُجِعْتَ بِهِ ... فَإِنَّهُ آلَةٌ لِلْجُودِ وَالبَاسِ
لَو شِئْتَ كَسُبَابِهِ صَادَفْتَ مُكْتَسَبًا ... أَو انْتِصَارًا مَضَى كَالسَّيفِ وَالفَاسِ
مَنْ ذَا يَقُومُ لِخُرْطُومٍ حُبِيتَ بِهِ ... إِذَا ضَرَبْتَ بِهِ قَرْنًا عَلَى الرَّاسِ ؟
أَو مَنْ يَرَاهُ فَلا يُعْطِيكَ خِلَّعَتَهُ ؟ ... لا تُكْذَبَنَّ فَمَا بِالصِّدْقِ مِنْ نَاسِ [177]

وإذا تخيلنا أنف الرجل سيفًا أو فأسًا لا بد أننا سنضحك من صاحب هذه الأنف ، ولو تخَيَّلَ الرجلُ أنفَهُ بهذا المنظر لسَخَرَ من نفسه .

أما في القصيدة التي هجا فيها وجه عمرو ، فقد وضع بدلاً من رأسه الآدمي رأس كلب ، ثُمَّ ما لبث أن انحطَّ به عن ذلك ، عندما انحدر به عن منزلة الكلب ؛ لأن الكلب يحامي عن المواشي ، أما هو فلا يحامي ولا يصول ، وهو يستخدم في ذلك مقدمات منطقية ؛ لينتهي إلى ما يريد من مسخ وتشويه ، يقول :

وَجْهُكَ ، يَا عَمْرُو ، فِيهِ طُولُ ... وَفِي وُجُوهِ الكِلابِ طُولُ
مَقَابِحُ الكَلْبِ فِيكَ طُرًّا ... يَزُولُ عَنْهَا ، وَلا تَزُولُ [178]

وأعتقد أن خاصية المسخ عند ابن الرومي ترجع إلى أصله اليوناني ؛ فهو يعاقب الناس بمسخ صورهم ، كما عاقبت آلهة اليونان البشر بتحويل مَنْ غضبت عليه إلى صورة حيوانية . [179]

وهجا أصحاب اللِّحَى ، لدرجة أنه جعل اللحية أحد أسباب تقصير البحتري في فنه ، يقول :

أَولَى بِمَنْ عَظُمَتْ فِي النَّاسِ لِحْيَتُهُ ... مِنْ نِحْلَةِ الشِّعْرِ أَنْ يُدْعَى أَبَا العَجَبِ [180]

ومن العيوب التي رَكَّزَ عليها طول اللحية ، وجعلها تدل على نقصان العقل ، فكلما طَالَتْ لِحْيَة الفرد نَقُصَ عَقْلُهُ ، فهناك تناسب عكسي بين طول اللحية ورجاحة العقل ، يقول :

إِذَا عَرُضَتْ لِحْيَةٌ لِلفَتَى ... وَطَالَتْ وَصَارَتْ إِلَى سُرَّتِهْ
فَنُقْصَانُ عَقْلِ الفَتَى عِنْدَنَا ... بِمِقْدَارِ مَا زَادَ فِي لِحْيَتِهْ [181]

وقد اتُّهِمَ في رجولته ، وهو يرى أن اللحية علامة التذكير ، يقول :

أَو فَقَصِّرْ مِنْهَا ، فَحَسْبُكَ مِنْهَا ... نِصْفُ شِبْرٍ ، عَلامَةَ التَّذْكِيرِ [182]

ويشبهها مرة أخرى بالشراعين في قوله :

وَلِحْيَةٍ يَحْمِلُهَا مَائِقٌ ... مِثْلِ الشَّرَاعِينِ إِذَا أُشْرِعَا [183]

وذاك لحيته تشبه مخلاة معلقة في رقبة الحمار ، ولكنها بغير شعير ، يقول :

إِنْ تَطُـلْ لِحْيَـةٌ عَلَيـكَ وَتَعْـــــرُضْ فَالمَخَالِـــــي مَعْـــــرُوفَـــــةٌ لِلحَمِيرِ
عَلَّقَ اللهُ فِي عِذَارَيكَ مِخْلا ةً ، وَلَكِنَّهَا بِـغَيرِ شَعِيرِ [184]

عندما نَظَرَ ابن الرومي إلى وجه هذا الرجل ، صـــاحب اللحية الطويلة ، قفزت إلى مخيلته سريعًا صورة المخلاة التي تُعَلَّق في رقبة الحمار ؛ فرسم هذه الصورة للحية الرجل تعبيرًا عن إفراط لحية هذا الرجل في الطول ، لقد اســتوت هذه اللحية ، في شــكلها وهيئتها على وجه هذا الرجل ، بشــكل وهيئة المخلاة في رقبة الحمير ، إلا أن ثمة فرق بينهما هو أن المخلاة في رقبة الحمار لها فائدة ؛ فهي وسيلة إطعامه ، أما هذه اللحية فلا فائدة منها لصاحبها ، فلا هو منتفعٌ بها ، ولا هو مُتَحَرِّرٌ منها ، بل هو مُتَخَفٍّ وراءها ، فالفعل لها وليس لصــاحبها ، فهي المســتبدة بالفعل دونه لا لشيء إلا لمراوغة منه .

ابن الرومي بصورته هذه للحية الرجل يلقي الضوء على هذه الشخصية المراوغة التي تتخفى خلف هذا القناع ، وعندما تَحَدَّثَ عن المخلاة لم ينتظر حتى يتساءل القارئ : أبها شـعير أم بغير شعير ؟ بل استدرك قائلاً : (ولكنها بغير شعير) ؛ ليقلل من قيمتها . ولا تتحرك هذه اللحية بذاتها ، وإنما بتحريك صاحبها لها ، وكذلك المخلاة لا تتحرك بذاتها ، وإنما بتحريك الحمار لها .

ولعلك تلاحظ أنه لم يُصَــرِّحُ هنا بتشــبيه صــاحب اللحية بالحمار ، وإن كان ذلك مفهومًا ضمنيًّا من التشبيه ؛ لأنه شاخص إلى رسم صورة مضحكة لصاحب هذه اللحية ، فهو ليس معنيًا بتصوير غبائه ، ولكنه معني بتصوير هيئته المضحكة ، وهذا أشد إيلامًا له .

وتكمن براعة هذا التشـبيه في التباعد بين طرفيه ، ومن ثم كان إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس إليه أطرب ؛ لأن " تصوير الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك من غير مَحِلَّتِه ، واجتلابه إليه من الشِّــقَّ البعيد ، بابًا آخر من الظَّرف واللُّطْف ، ومذهبًا من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل " [185] .

وابن الرومي إذ يرسم هذه الصورة للحية هذا الرجل يُلْقِي الضوء على جوهر هذه الشخصية المراوغة ، التي تتخفَّى خلف هذا القناع . لقد مسخ هذا الرجل ، وجعل رأسه في النهاية رأس حمار ؛ لأن لحيته تشــبه المخلاة ، والمخلاة يحملها الحمار ، وهي عديمة الفائدة ؛ لأنها بدون شــعر ، كذلك اللحية عديمة الفائدة . ومن هذه المقدمات تكون النتيجة أن رأس صاحب اللحية رأس حمار.

وقد فهمنا من أشــعاره أنه كان فتى أمرد ؛ ولذا يشــعر بالنقص عندما يرى صــاحب اللحية الشاسعة ؛ فيحاول أن يلصق به كل المساوئ والرذائل .

كما سخر من الدهر لعبثه وجوره وتناقضه ، يقول :

رَأَيتُ الدَّهْرُ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيُخْفِضُ كُلَّ ذِي شِيَمٍ شَرِيفَهْ [186]

وهجا هذا الزمن الذي أصبح يشعر فيه بالغربة :

وَرِجَالٌ تَغَلَّبُوا بِزَمَانٍ أَنَا فِيهِ وَفِيهُمُ ذُو اغْتِرَابِ [187]

كما سخر من نفسه ، وتَهَكَّمَ من قبح وجهه ، كقوله :

لأَنَّ وَجْـهِـي بِـقُـبْـحِ صُـــــورَتِـهِ مَـا زَالَ لِـي كَـالـمَشِـــيـبِ وَالصَّـــلَـعِ
إِذَا أَخَـذْتُ المِرْآةَ أَسْلَفَنِـي وَجْهِي ، وَمَا مُتُّ ، هَولَ مُطَّلَعِي [188]

واستخدام ابن الرومي للألفاظ أحد طرق السخرية ، ومن ذلك قوله في نُجْح الخادم :

قُلْ لِنُجْح : أَخْطَأْتَ بَابَ النَّجَاح بَلْ تَعَاطَيتَهُ بِلا مِفْتَاح [189]

فعلى الرغم من كونه نُجْحًا لم ينجح ، وتلك سخرية لفظية .

وقد سخر من صفة البخل وهجا البخلاء ، ومن ذلك قوله في هجاء عيسى :

يُقَتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلا خَالِدِ

وَلَو يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنَفَّسَ مِنْ مِنْخَرٍ وَاحِدِ! [190]

وهذه صورة ساخرة تدل على شدة البخل ، وتجعل من يتخيله – وقد سدَّ أحد منخريه ، وتنفس بالآخر فقط – يضحك من فعله .

ومن هجائه الساخر أيضًا قوله :

طُولٌ وَعَرْضٌ بِلا عَقْلٍ وَلا أَدَبِ فَلَيسَ يَحْسُنُ إِلاَّ وَهْوَ مَصْلُوبُ [191]

فمن يراه يظن رجاحة عقله [192] ، ولكنه سخر منه فجعله مسلوب العقل والأدب ، ومن كان على شاكلته لا يَحْسُنُ إلا وهو مصلوب .

كان يشعر بدناءة الآخرين ؛ لذا أخذ يسخر منهم ، ويلتقط عيوبهم ويُكَبِّرُهَا ، يساعده في ذلك قوة خياله ودقة ملاحظته وذكاؤه الشديد ؛ فأخذ يُقَبِّحُ صورة خصمه ويشوهها ، ثم يمسخها ؛ حتى يجعل المهجو :

رَجَلٌ تُوحِشُ المَجَالِسُ مِنْهُ وَإِذَا مَاتَ أَوحَشَ الأَجْدَاثَا [193]

علاقة نفسية ابن الرومي بإفحاشه في الهجاء :

وشعور ابن الرومي بعقدة النقص جعله يهجو الآخرين ؛ لأن " الرجل الذي يُعَانِي من عقدة نقص مزمنة يُفْصِحُ عنها بطرق عديدة ، فهو عادة حَسَّاس يثور لأتفه الأسباب " [194] ، وكان ابن الرومي " يندفع في الشتم والذم وبسط اللسان في الناس لأهون الأسباب ؛ ومن أجل أشياء لا تهيج الرجل السليم الرشيد " [195] ، ويدل هذا الهجاء اللاذع على مرضه النفسي ، وكأن أحدًا نَكَّأَ جُرْحَهُ ؛ فأخرج كل ما فيه من قَيْح ، فقال هذا القول الفاحش عندما " فار فائره ، وامتلأ غيظًا على عائبه ، وتناوله بكل قبيح ، وألصق به كل سوءة ومعرة وهجاء" [196].

ولشعوره بالنقص " نجده يلتقط بسرعة علامات النقد " [197] ، ويرمى كل معاصريه بالقبائح والرذائل ، ويمضى " يقارن نفسه وأعماله بغيره " [198]، ويلتفت إلى نفسه يتأملها .

وكان في هجائه مقذعًا مُسِفًّا ، هاتكًا للأعراض ، رامٍ لها بكل سوء ودنس ، أو ساخرًا ، والعاطفة العامة التي تبعث على الهجاء هي عاطفة الغضب والكراهية ، والرغبة في الانتقام .

فما الذي يُغْضِب شاعرنا ويدفعه إلى الهجاء ؟

هناك عوامل كثيرة حَثَّتْه على الهجاء ، فقد كان محرومًا دائمًا يُلِحُّ في الطلب ؛ حتى يظن قارئ شعره جهل ممدوحيه وبخلهم .

وقصته في الهجاء تأتي على النحو التالي : مدح ، قبول هذا المدح ، منع الجائزة عنه ، عتاب يشبه الهجاء ، نقل الوشاة لهذا العتاب بصورة الهجاء ، اعتذار ، تناسي ممدوحه ، غضب الشاعر ، ثم الهجاء . يقول في مدح القاسم بن عبيد :

أَيَا غُرَّةَ العَلْيَا ، وَيَا عَينَهَا اليُمْنَى وَيَا صَفْوَةَ الدُّنْيَا ، وَيَا حَاصِلَ المَعْنَى [199]

ويمدحه أيضًا بقوله :

يَا مَدَدِي حِينَ خَانَنِي مَدَدِي وَعُدَّتِي إِذْ تَعَذَّرَتْ عُدَدِي [200]

فيغض القاسم طرفه عنه ، ويتناساه لكثرة إلحاحه ؛ فيزداد فقر الشاعر ، ويُذَكِّره بمحاسنه ووفائه له قائلاً :

أَنَا مَنْ عَرَفْتَ وَفَاءَهُ وَصَفَاءَهُ ... وَوَلاءَهُ إِيَّاكَ مُذْ هُوَ أَمْرَدُ
هَبْنِي امْرَأً لَيسَتْ لَهُ بِكَ حُرْمَةً ... تُرْعَى ، أَمَا لِي زَلَّةٌ تُتَغَمَّدُ [201]

وإذا كان ابن الرومي يجمع كل تلك الصفات : الوفاء والصفاء والولاء ، فله الحقّ في أن يتوجَّه معاتبًا للقاسم قائلاً :

فَعَلامَ انْصِرَافُ وَجْهَكَ عَنِّي ... وَتَنَاسِيكَ حَاجَتِي إِلْغَاءَ ؟ [202]

ويشتدّ في عتابه حتى يُشَارِف الهجاء ، ويأتي دور الوشاة ، الذين ينقلون إلى القاسم ما هجاه به ابن الرومي ، يقول :

جَعَلُوا العَبْدَ كُفْءَ مَولاهُ ؛ فَانْظُرْ ... هَلْ تَرَاهُمْ لِعَاقِلٍ أَكْفَاءَ ؟
مَا تَعَدَّوا بِذَاكَ أَنْ وَزَنُونِي ... بِكَ ، ضَلَّتْ عُقُولُهُمْ عُقَلاءَ ! [203]

فيغضب الممدوح ، ويبدأ ابن الرومي في الاعتذار قائلاً : إنه لم يقل شيئًا مما وصل إلى أُذُنيه ، ويستشهد بأحد خُلْصَائِهِ ، يقول :

وَهْوَ الشَّهِيدُ عَلَيَّ أَنِّي لَمْ أَقُلْ ... بَعْضَ الذِي قَدْ أَبْدَأُوا وَأَعَادُوا
وَهَبِ السُّعَاةَ أَتَوا بِحَقّ وَاضِح ... أَينَ الكِرَامُ : أَبُدِّلُوا أَمْ بَادُوا ؟ [204]

واستنكار ابن الرومي في استفهامه : (أين الكرام ؟) يقترب من الهجاء . ولَمَّا لم يُعْطِهِ القاسم شيئًا ، اشتد غضبه ، وثارت ثائرته ، وبدأ في الإنذار والتهديد قائلاً :

أَقُولُ قَولِي وَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ غَضَبِي ... يَا سَادَةَ النَّاسِ ، وَالإِنْذَارُ إِعْذَارُ [205]

وعندما لم ينفع العتاب والاعتذار والتهديد ، صَوَّبَ سيف هجائه إليه علانيةً ، يقول :

يَا مَنْ إِذَا رَأَتْهُ عَينُ وَالِدِهِ ... بَينَ الرِّجَالِ اتَّقَاهُمْ بِالمَعَاذِيرِ
أَقْسَمْتُ بِاللهِ لَو كُنْتَ لِي وَلَدًا ... لَمَا جَعَلْتُكَ إِلاَّ فِي المَطَامِيرِ
عَلَيكَ وَجْهٌ كَسَاهُ اللهُ لَعْنَتَهُ ... كَأَنَّ خُرْطُومَهُ خُرْطُومُ خِنْزِيرِ [206]

ومَنْ يسمع هذا الهجاء يَشْعُرُ بأن ابن الرومي لم يمدحه مطلقًا ، ولكنه – في حقيقة الأمر– مدحه في قصائد كثيرة ، وأسبغ عليه مآثر وفضائل عديدة ، ثم انقلب عليه وسَلَبَهُ كُلّ ما قاله فيه من مدح ، واتَّهَمَ نفسه بالكذب في مدحه ، وكأنه " مدفوع للتكفير عن تذلُّلِهِ الطويل بين يدي القاسم" [207].

وقد عاتب القاسم واعتذر له ، ثم هَدَّدَهُ ، وفي نهاية الأمر هجاه ؛ خوفًا منه . أما غير القاسم فكان يكفيه أن يحجب الجائزة عنه ؛ حتى يندفع من فَورِهِ هاجيًا له .

وقد أُصِيبَ ابن الرومي بالإحباط غير مرة ؛ فقد ذهب كثيرًا ليمدح ولم يَنَلْ ثوابًا ، إما لبخل ممدوحيه ، أو للتندُّر به ، وهذا ما حدث مع إبراهيم بن المدبِّر؛ حيث مدحه فردَّ عليه مدحه ؛ فقال يهجوه :

رَدَدْتَ عَلَيَّ مَدْحِي بَعْدَ مَطْلٍ ... وَقَدْ دَنَّسْتَ مَلْبَسَهُ الجَدِيدَا
وَقُلْتَ : امْدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيرِي ... وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ المَدْحَ الرَّدِيدَا
وَلا سِيمَا وَقَدْ أَعْمَقْتَ فِيهِ ... مَخَازِيكَ اللَّوَاتِي لَنْ تَبِيدَا
وَمَا لِلحَيّ فِي أَكْفَانِ مَوتٍ ... لَبُوسٌ بَعْدَ مَا امْتَلأَتْ صَدِيدَا [208]

وما حَدَثَ مع ابن المُدَبِّر حَدَثَ مع جُلِّ ممدوحيه ؛ ولكثرة شكواه في مدحه ملّه الممدوحون ، ولم ينل رِفْدَهم ؛ فأصيب بالإحباط ، وقد نَجَمَ عن هذا الإحباط ظواهر نفسية ومَرَضِية ؛ " فقد اتخذ أسلوب الاعتداء والتَّجَنِّي ، مُصاحبًا بانفعال الغضب ، وموجهًا ضرباته نحو مصدر الإحباط الذي أفسد مسعاه" [209].

فأخذ يهجو هؤلاء الممدوحين ، ويسلبهم كل الصفات الحسية التي مدحهم بها سابقًا ، وليس هؤلاء فقط ، بل كل معاصريه فليس فيهم أحدٌ يُرْضَى :

إِنْ رُمْتُ مَدْحًا لَمْ أَجِدْ أَهْلَهُ أَو رُمْتُ هَجْوًا لَمْ أَجِدْ عِرْضَا [210]

ونتيجة هذا الإحباط " أصيب بالخوف الشديد ، وأصيب بحالة من السلبية ، فيتراجع متحدِّيًا المشكلة ، ويوصف هذا بالنكوص" [211] ؛ " فهو لا يبذل أي جهد لحلّ مشكلة الفقر الواقع فيها خوفًا من أن يواجه مرة ثانية مشاعر الخيبة ومرارة الفشل ، فهو يستمرئ مرارة الفقر أفضل من أن يذوق مرارة الفشل" [212].

وهجا كل من أتى بفعل ينافي الحضارة ، فقال يهجو إنسانًا ضَرَّط بحضرته ، فضحك ابن الرومي ، وغضب الضارط :

بُلِيتُ بِفَلْتَةٍ فَضَحِكْتُ فَلْتَهْ فَلا تَغْضَبْ كِلا الأَمْرَينِ بَغْتَهْ

وَلِي فَضْلٌ عَلَيكَ لأَنَّ فِعْلِي بِغَيرِ أَذًى عَلَيكَ ، فَلِمْ كَرِهْتَهْ ؟

أَتُسْمِعُنِي الأَذَى وَتُشِمُّنِيهِ وَتَجْشِمُنِي رِضَى مَا قَدْ فَعَلْتَهْ

وَتَغْضَبُ إِنْ ضَحِكْتَ بِغَيرِ عَمْدٍ وَلَمْ تَسْمَعْ أَذَايَ وَلا شَمِمْتَهْ ؟[213]

ومن بواعث هجائه أنه يرى نفسه مُزَوَّدًا بكل ثقافات العصر ، وعلى الرغم من ذلك لم يتبوأ المنزلة التي يستحقها ، ونَالَهَا الجهلاء . وأنه كان ضعيفًا مختلّ الأعصاب ؛ ولاعترافه على نفسه بعيوبه ، عبث به معاصروه – فالأخفش هجا شعره وعبث به ، والنضر هجا مشيته – واغتابوه بما عَابَ به نفسه ، وضَخَّمُوا من حجم تلك العيوب ؛ حتى ثارت ثائرته لاختلال أعصابه وضيق صدره ؛ وكان لا بُدَّ أن يدافع عن نفسه ؛ فأطلق لسانه فيهم . أضف إلى ذلك شهوانيته ، ونهمه في كل شيء ؛ ولنهمه الشديد هجا كثيرين بالبخل ؛ لأنه يريد ولا يأخذ ؛ فيذمهم بالبخل . وفي مثل هذه المواقف كان الهجاء عنده " سلاح دفاع لا سلاح هجوم " [214] .

وعقدة النقص جعلته حاقدًا حاسدًا ؛ فرأى أن جُلّ الناس حَظَوا بما ليس من حَقِّهم ، وأنه الوحيد الذي استهدفه الدهر، وكَادَ له فأصابه بكثيرٍ من المصائب ؛ فدفعته تلك المصائب والأرزاء إلى التشاؤم ، الذي اشتُهِرَ به ، وكان سببًا في رؤيته كل الحسنات مساوئ ، وكل الفضائل عيوب ؛ حتى الأسماء صَحَّفَها جاعلاً منها رمزًا للنحس ومصدرًا للهجاء .

وكُلّ دوافع الهجاء السابقة تنبعث من نفسية ابن الرومي وفقره ومرضه ، وسوء علاقاته مع الآخرين .

أسباب السخرية عند ابن الرومي :

وهناك أسباب كثيرة دفعته إلى السخرية ؛ فعصره جَمَعَ كثيرٌ من المتناقضات ، مثل العلماء والجُهَّال ، والزُّهَاد والمُجَّان ، والعلوم العقلية والعلوم النقلية ، وابن الرومي نفسه كان مليئًا بالمتناقضات في أصله وثقافته ؛ فهو بجانب فارسية الأم ، ورومية الأب ، وعربية النشأة ، وشيعية المذهب ، يُوَالِي العباسيين .

" وقد اجتمع له من عناصر الشعر ما لم يجتمع لأحد في عصره ، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور " [215].

ولا بُدَّ أن يكون الساخِر دقيق الملاحظة ، واسع الخيال ؛ حتى يستطيع إدراك الصلة بين المتناقضات ، ويُرَكِّبُ صُوَرًا مضحكة ، يَقِفُ فيها عند نواحي الضعف ويُكَبِّرُهَا .

ونستطيع أن نقول إن ابن الرومي كان طفلاً طيلة حياته ، وكأنه أصيب بالنُّكُوص ؛ فسلك سلوكًا طفليًّا ، وهو العبث بكل ما يقابله دون أن تكون بينه ومَنْ يعبث به أي عداوة .

لقد هجا ابن الرومي الناس على اختلاف أنواعهم ، وكان مدفوعًا إلى الهجاء ، بسبب أمراضه ، وفضلاً عن ذلك فإن سلاطة اللسان – في حد ذاتها – تُعَدُّ مرضًا ؛ لأن مَنْ يهجو لا بُدَّ أن يتأمل عيوب المهجوين ، وذلك دلالة على عيبٍ فيه ، ونقصٍ يحاول ستره وإسقاطه على الآخرين .

وإذا أردنا أن نجد سببًا محددًا لأمراضه لصَعُبَ علينا ، فكُلٌّ منها سبب في الآخر . فالتشاؤم سبب وعلة ، فقد أدَّىَ إلى المرض ، والمرض كان سببًا في سيطرة التشاؤم عليه ، وكذلك باقي الأمراض ؛ وذلك لأن كثرة النكبات التي أصابته جعلته يتوقَّع الشر ، وهذا التوقُّع كان له أثره ؛ فاعتلت صحته ومَرِضَ ؛ لأنه توقَّع المرض ؛ فلَمَّا مَرِضَ تشاءم من الحياة والأحياء جميعًا ، ومن ثَمَّ فأمراضه كانت حلقة متصلة لا ندري أين طرفاها ، وكان لها أثرٌ كبيرٌ في شعره ؛ لأن هناك علاقة وثيقة بين الإبداع الفني والمرض .

المبحث الخامس : أثر أمراض ابن الرُّومي في شعره عامة

وقد أثَّرَتْ أمراضه تأثيرًا كبيرًا في شعره ؛ فنراه يبكي شبابه الذي ضاع قبل أوانه ؛ فيقول في إحدى قصائده ناعيًا شبابه :

يَا شَبَابِي ، وَأَينَ مِنِّي شَبَابِي ... آذَنَتْنِي جِبَالُهُ بِانْقِضَابِ

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَلَهْوِي ... تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللِّدَانِ الرِّطَابِ [216]

ويبكي في قصيدة أخرى شبابه بكاءً شديدًا ؛ فيقول :

أَبَينَ ضُلُوعِي جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ ... عَلَى مَا مَضَى أَمْ حَسْرَةٌ تَتَجَدَّدُ ؟

خَلِيلَيَّ مَا بَعْدَ الشَّبَابِ رَزِيَّةٌ ... يُجَمُّ لَهُ مَاءُ الشُّئُونِ وَيُعْتَدُ

ثم يقول في نفس القصيدة :

وَفَقْدُ الشَّبَابِ المَوتُ ، يُوجَدُ طَعْمُهُ ... صُرَاحًا ، وَطَعْمُ المَوتِ بِالمَوتِ يُفْقَدُ

رُزِئْتُ شَبَابِي عَودَةً بَعْدَ بَدْأَةٍ ... وَهُنَّ الرَّزَايَا بَادِئَاتٌ وَعُوَّدُ [217]

وفي هذه القصيدة يذكر ما آل إليه جسده من هُزَال وضعف ؛ حتى ابتعدت عنه النساء لقُبْحِهِ ودمامته وضَعْف بنيته . ولم يقتصر أمر شكواه على بكاء الشباب ، ولكنه أَخَذَ يَعْرِضُ العاهات والأمراض التي أُصِيبَ بها على الآخرين ، يقول في إحدى قصائد مدحه للقاسم :

أَنَا ذَاكَ الذِي سَقَتْهُ يَدُ السُّقْـ ... ـمِ كُئُوسًا مِنَ المُرَارِ رِوَاءَ

وَرَأيتُ الحِمَامَ فِي الصُّوَرِ الشُّنْـ ... ـعِ ، وَكَانَتْ لَولا القَضَاءُ قَضَاءَ

وَرَمَاهُ الزَّمَانُ فِي شُقَّةِ النَّفْـ ... ـسِ ، فَأَصْمَى فُؤَادَهُ إِصْمَاءَ

وَابْتَلاهُ بِالعُسْرِ فِي ذَاكَ وَالوَحْـ ... ـشَةِ حَتَّى أَمَلَّ مِنْهُ البَلاءَ

وَثَكِلْتُ الشَّبَابَ بَعْدَ رَضَاعٍ ... كَانَ قَبْلَ الغِذَاءِ قِدْمًا غِذَاءَ [218]

ولا يُحبُّ الممدوح أن يُذكر أحدٌ غيره في القصيدة ، ولكن الشاعر تناساه وبدأ يعرض أمراضه ، " وما أشبهه في ذلك بمتسوّل يعرض عاهاته وآفاته استعظامًا واسترزاقًا " [219] ، وكان ذلك سببًا في إخفاقه في فن المديح ؛ لأنه جعل قصائد مديحه تَغُصُّ بالحديث عن نفسه ، وشكوى سوء حاله .

ونجد غَرَضًا آخر في شعره قَلَّما اهتمَّ به الشعراء ، وهو وصفه للأطعمة ؛ فقد امتلأ ديوانه بألوانٍ شَتَّى من الأطعمة ، ودفعه نهمه المرضي إلى ذلك .

أما أمراضه الجنسية : العُنَّة والشذوذ ؛ فكانت سببًا في إفحاشه ؛ لأن الإفحاش يرجع إلى سببين : أولهما : الحضارة ؛ لأن " الإفحاش وليد الحضارة ، والغلو في الإفحاش وليد التهتك في الحضارة " [220].

وثانيهما : ابن الرومي نفسه وانحلاله وشهواته ، " وإصابته بعُقَد جنسية تتصل بعجزه وشذوذه وانحرافه ، وكأنما تجمعت فيه كل عُقَد الأمراض الجنسية ، فإذا هو يحاول أن يشبعها هي وكل ما يتصل بها من غرائز بأدبه المنحلّ انحلالاً سيئًا ، أو قُلْ انحلالاً إلى أقصى حدّ " [221]، لذا فقد ذكر في ديوانه مواطن العُنَّة بأسمائها ، وصَوَّرَ مناظر جنسية مفزعة ، وكأنه لم يجد بُدًّا من " أن يعالج أمراضه إلا بأشعاره المكتظة بجراثيم الإثم والفساد " [222].

وقد وجدنا في ديوانه نماذج كثيرة مُسِفَّة يتهم فيها أمهات من هجاهم بالفسق والفجور ، ويشير إلى أن كُلّ عضو في جسدهم يشهد عليهن بالزنا ، مستخدمًا في ذلك أقبح الألفاظ وأشنعها ، وأحطّ الصور ؛ " فهو يمتاز بأرقى مستوى فني ثقافي مع أدنى مستوى أخلاقي نفسي " [223]، ومن تلك النماذج المُسِفَّة قوله في هجاء خالد القحطبي :

أَيَا بْنَ التِي كَانَتْ تَحِيضُ مِنْ اسْتِهَا ... يَدَ الدَّهْرِ لَمْ يَطْهُرْ لَهَا قَطُّ مِئْزَرُ

إِذَا مَا وَنَى عَنْهَا الزُّنَاةُ دَعَتْهُمُ ... شَقَاشِقُ مِنْ أَرْحَامِهَا الخُضْرِ تَهْدِرُ

أُحَاشِي التِي تَنْمِي إِلَيكَ وَأَنْتَحِي ... بِهَا أُمِّكَ الأُخْرَى التِي سَوفَ تَظْهَرُ

وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ شَفَّهَا العُقْمُ فَاغْتَدَتْ ... تَبَنَّي ابْنَ أُخْرَى وَالأُمُورُ تُزَوَّرُ

عَسَـــــاكَ أَفَـادَتْـكَ الـدَّعَـاوَةُ نَـخْوَةً فَغَرَّتْكَ مِنِّي وَالجَهُولُ مُغَرَّرُ [224]

وجاءت صورٌ كثيرة مثل هذه الصورة ، وأقبح منها ، والسبب أمراضه الجنسية .

وتشـــاؤمه وشـــعوره بالنقص جعل الغرض الغالب في شـــعره هو الهجاء ؛ لأنه أراد تقبيح الآخرين ؛ حتى يشبهوه في القبح ؛ فغَصَّ ديوانه بألوانٍ مختلفة من الهجاء .

والوسواس الذي تَمَكَّنَ منه جعله يُكَرِّرُ معانيه كثيرًا ؛ مما جعل صاحب الوساطة يقول فيه : " ونحن نستقرئ القصيدة من شعره ، وهي تناهزُ المائة أو تُرْبِي أو تُضْعِفُ ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ، ثُمَّ قد تنسلخ قصائد منه وهي واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ " [225].

ودفعه الوســـواس القهري إلى هذا التكرار ؛ فهو يكرر معانيه بنفس الوزن ، ولا اختلاف إلا في حرف الرويّ ؛ لأنه يرى أنه قَصَّرَ في أداء المعنى ؛ فيرجع إليه مرة أخرى بقافية مختلفة ، ومن ذلك قوله في بكاء شبابه :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِـهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

وَإِلاَّ فَـمَـا يُـبْـكِـيـهِ مِـنْـهَـا وَإِنَّـهَـا لأَفْسَـــحُ مِـمَّـا كَـانَ فِـيـهِ وَأَرْغَـدُ

إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِمَا سَوفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ [226]

ويقول في قصيدة أخرى على نفس الوزن ، ولا اختلاف إلا في الرويّ :

لِمَـا تُؤْذِنُ الـدُّنْيَـا بِـهِ مِنْ شُـــرُورِهَـا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَـــاعَةَ يُوضَـــعُ

وَإِلاَّ فَـمَـا يُـبْـكِـيـهِ مِـنْـهَـا وَإِنَّـهَـا لأَفْسَـــحُ مِمَّـا كَـانَ فِيـهِ وَأَوسَـــعُ

إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ يَرَى مَا سَيَلْقَى مِنْ أَذَاهَا وَيَسْمَعُ [227]

وينصح في إحدى قصائده بمجانبة الإكثار من الصحاب :

عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَـرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ [228]

ويكرر نفس المعنى في قصيدة أخرى بنفس الوزن ، ولا اختلاف إلا في الرويّ ، يقول :

عَـــدُوَّكَ مِـــنْ صَـــدِيقِـــكَ مُسْتَحِيلٌ فَـــلا تَسْتَـــكْـــثِـــرَنَّ مِـــنَ الصَّدِيقِ

كَـــذَاكَ الـــدَّاءُ أَكْـــثَـــرَ مَـــا تَـــرَاهُ مِنَ الأَشْيَاءِ تَحْلُو فِي الحُلُوقِ [229]

ويقول في هجاء زوج خالد القحطبي :

أَبْصَـــرْتُ زَوجَتَـهُ يَومًـا بِحَضْـــرَتِـهِ وَقَدْ عَلَتْ دُونَ سَقْفِ البَيتِ رِجْلاهَا [230]

ويكرر نفس المعنى في هجائها في قصيدة أخرى بنفس الوزن ، يقول :

مُـذْ خُـلِـقَـتْ مَـرْفُـوعَـةً رِجْـلاهَـا كَأَنَّمَا تَسْتَغْفِرَانِ اللاهَا [231]

فهو دائمًا يكرر معانيه ، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى سببين : الأول : الوسواس القهري الذي سَيطَر عليه ؛ فجعله يَظُنُّ دائمًا أنه قَصَّرَ في أداء المعنى ؛ فيرجع إليه ويكرره ، والسبب الآخر : مرض السكر الذي أصابه بضعف الذاكرة [232] ؛ فينسى بعض المعاني التي قالها فيعود ليقولها مرة أخرى ؛ مما أدى إلى كبر حجم ديوانه .

وللتشاؤم أثرٌ كبيرٌ في شعره ، فقد كان سببًا في إخفاقه في المديح ، " لأنه لا يتسنَّى لابن الرومي ، عَبْر تَرَفُّع لا ينقطع لمفرداته وتراكيبه وصوره ، التي تُجَسِّد أغربة سوداء لليأس المتشائم والعتمة الكثيفة ، أن يُقَدِّمَ بين يدي ممدوحيه بغيتهم من دواعي الكبرياء " [233].

ومن هنا فقد أخفق في المدح ، على الرغم من كثرة مدائحه ، وجعله هذا الإخفاق يستجدي ممدوحيه ، ويطلب منهم أن يستخدموه قائلاً :

نَعَمْ أَنَا مَمْنُوعُ الذِي لَسْتُ كُفْؤَهُ ... أَتَمْنَعُنِي قُوتِي مِنَ العَرَضِ الأَدْنَى

أَذُو آلَةٍ ؟ فَاسْتَخْدِمُونِي لآلَتِي ... بِقُوتِيَ ، أَو لا فَارْزُقُونِي مَعَ الزَّمْنَى

وَإِنِّي لأَرْجُو الفَوزَتَينِ ، وَلَمْ تَزَلْ ... أَيَادِيكُمُ تَتْرَى عَلَى المُجْتَدِي مَثْنَى [234]

وتشاؤمه كان سببًا في إكثاره من الهجاء ، والنظر إلى الدنيا بعين سوداء ؛ حتى صار يرى مظاهر الجمال هدفًا للهجاء ؛ فرأى البدر مُضَلِّلاً بدلاً من كونه هاديًا مؤنسًا ، وذمَّ الورد .

ولسيطرة الهجاء على نفسه فقد نظر إلى الدنيا بعين سوداء ، وأصبح يرى الجمال مصدر إلهام الشعراء هدفًا للهجاء ، فها هو يهجو القمر :

لَو أَرَادَ الأَدِيبُ أَنْ يَهْجُوَ البَدْ ... رَ رَمَاهُ بِالخُطَّةِ الشَّنْعَاءِ

قَالَ : يَا بَدْرُ أَنْتَ تَغْدِرُ بِالسَّا ... رِي ، وَتُزْرِي بِزَورَةِ الحَسْنَاءِ

كَلَفٌ فِي شُحُوبِ وَجْهِكَ يَحْكِي ... نُكَتًا فَوقَ وَجْنَةٍ بَرْصَاءِ [170]

وطيرة ابن الرومي وحدها هي التي جعلته يرى البدر مُضَلِّلاً بدلاً من كونه هاديًا مؤنسًا ، وكذلك جعلته يذم الورد ، الذي مدحه كثير من الشعراء وقالوا إنه يُشْبِهُ في احمراره خدود المحبوبة عند الخجل ، ولكن شاعرنا يرى في احمراره لون الدم ، وفي قلبه روثًا ، يقول :

وَقَائِلٍ : لِمْ هَجَوتَ الوَرْدَ مُعْتَمِدًا ؟ ... فَقُلْتُ : مِنْ بُغْضِهِ عِنْدِي وَمِنْ سَخَطِهْ

يَا مَادِحَ الوَرْدِ لا يَنْفَكُّ عَنْ غَلَطِهْ ... أَلَسْتَ تُبْصِرُهُ فِي كَفِّ مُلْتَقِطِهْ

كَأَنَّهُ سُرمُ بَغْلٍ حِينَ يُخْرِجُهُ ... عِنْدَ الرِّيَاثِ وَبَاقِي الرَّوثِ فِي وَسَطِهْ [171]

وجعله يُصَوِّرُ عَينَي أُنْثَاهُ وهول صنيعها به تصويرًا داميًا ، أدواته القتل والسهم والحتف المُرْسَل ، يقول في الغزل :

عَينِي لِعَينِكَ حِينَ تَنْظُرُ مَقْتَلُ ... لَكِنَ عَينَكَ سَهْمُ حَتْفٍ مُرْسَلُ

وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّ مَعْنًى وَاحِدًا ... هُوَ مِنْكَ سَهْمٌ وَهْوَ مِنِّي مَقْتَلُ [235]

كما جعله يقلب بنية الكلمات ؛ حتى يجعل منها مصـــدرًا للتشـــاؤم ومفتاحًا للتطيُّر ؛ فهو " يجعل كلمة (سـكان) (ناكس) بعد قلبها ، ومِنْ ثَمَّ يُبَرِّرُ بها رجوع العلاء بن صـاعد عن رحلته إلى واسط بعد أن كَسَرَتْ الرياح والأمواج سكان سفينته "[236] ، يقول :

رَأَيـتُ مُنْكَسِـــرَ السُّـــكَّـانِ ظَـاهِرُهُ ... هَولٌ ، وَتَـأْوِيلُـهُ فَـأْلٌ لِمَنْجَـاكَـا

كَسْـــرٌ لِنَـاكِسِ دَاءٌ كُنْـتَ تَحْـذَرُهُ ... وَصِـــحْـةٌ لَـكَ تُحْيِينَـا بِمَحْيَـاكَـا

لأَنَّ لَفْظَ " سُـــكَّـان " إِذَا قُـلِبَـتْ ... حُرُوفُهَـا " نَـاكِس" لا شَـــكَّ فِي ذَاكَا

فَـازْجُـرْهُ نَـاكِـسَ دَاءٍ هَـدَّ قُـوَّتَـهِ ... لَكَ المَلِيكُ الذِي مَا زَالَ مَولاكَا [237]

واعتمد في كل ذلك على ذكائه ، والأمرُ لا يقتصـــر على قلب حروف الكلمات ، بل قد يُصَـحِّفُ فيها أيضًـا ؛ ليصـل إلى غايته ؛ فنجده يُصَـحِّفُ كلمة (إسـحاق) فيجعلها (فاحش) ، وهو يشرح ذلك قائلاً لإبراهيم بن المُدَبِّر :

يَـا أَبَـا إِسْـــحَـاقَ وَاقْـلِـبْ ... نَـظْـمَ إِسْـــحَـاقَ وَصَـــحِّـفْ

وَاتْـرُكِ الـحَـاءَ عَـلَـى حَـا ... لٍ فَـمَـا لِـلـحَـاءِ مَصْـــرِفْ

يَشْـــهَـدُ اللهُ لَـقَـدْ أَصْـــ ... ـــبَحْـتَ عَـيـنَ الـمُـتَـخَـلِّـفْ

لا عَـزِيـزًا تَـظْـلِـمَ الـنَّـا ... سَ وَلا حُرًّا فَتُنْصِفْ [238]

وجعله تطيُّره يتصـور أحيانًا أن الكلمة منطوقة بلثغ مضـعف ، ومن ذلك قوله في أبي علي بن أبي قُرَّة :

أَنـتَ عِنْدِي وَشَـــيخِكَ السَّـــيِّدِ المَـا ... جِـدِ لا شَـــكَّ صَـــادِقُ الكُنْيَتَينِ

لَيسَ فِي مَنْطِقِ الفَصِـــيحِ وَلَكِنْ ... حِـينَ يَكْـنِـيكُـمَـا أَخُـو لَـثْـغَـتَـيـنِ

مُـبْـدِلٌ لامَ كُـلِّ لَـفْـظٍ بِـيَـاءٍ ... مُبْدِلٌ قَافَ كُلِّ لَفْظٍ بِعِينِ [239]

وقد دفعه مرض الخوف الذي أُصِـيبَ به ؛ إلى التصـوير الكنائي ؛ لأنه يخشـى الناس ؛ والكناية أبلغ في التعبير وأدقّ في التصوير ، ومن الكنايات قوله هاجيًا العباسيين عندما رثى يحيى العلوي :

أَفِي الحَقّ أَنْ يُمْسُـــوا خِمَاصًـــا وَأَنْتُمْ ... يَـكَـادُ أَخُـوكُـمُ بِـظْـنَـةً يَـتَـبَـعَّـجُ

وَلِـيـدُهُـمُ بَـادِي الـطُّـوَى وَوَلِـيـدُكُـمْ ... مِنَ الرِّيفِ رَيَّـانُ العِظَـامِ خَـدَلَّجُ [240]

المرض والبناء الفني :

أولاً : التشبيه[241] :

ولا نعدم أثر هذه الأمراض جليَّة واضـحة في البناء الفني لشـعر ابن الرومي ، فعلى سـبيل المثال دفعه حبه للطعام (النَّهَم) إلى جعل الطعام مضربًا للتشبيه في قوله :

لَـكَ مَكْرٌ يَـدُبُّ فِي القَومِ ، أَخْفَى ... مِنْ دَبِيبِ الغِذَاءِ فِي الأَعْضَـــاءِ[242]

مكره في لعب الشطرنج غير منظورٍ لأحد ، وفي نفس الوقت غير منكورٍ ؛ لأنه يؤثر تأثير الطعام في الأعضاء .

وأعتقد أنه لم يقل أحد مثل هذا التشبيه ؛ فإنه لا يصدر إلا عَمَّنْ يُشْبِهُ ابن الرومي في تذوقه للطعام وعشقه له عشقًا يتجاوز كل عشق .

وفي القصيدة نفسها يدفعه إحساسه بالشيب المبكر إلى هذا التشبيه :

أَو سُرَى الشَّيبِ تَحْتَ لَيلِ شَبَابٍ مُسْتَحِيرٍ فِي لَمَّةٍ سَحْمَاءِ[243]

لقد شبه مَكْرَ لاعب الشطرنج في اقتناصه قطع الآخر بسريان الشيب حثيثًا حتى يقضي على سواد الشعر ، إن لاعب الشطرنج (الممدوح) يقضي بمكره على عَدُوِّهِ رويدًا رويدًا ؛ فهو كبياض الشعر الذي يزحف فيقضي على سواده ؛ فيكون في التشبيه دلالة على ضعف عَدُوِّهِ ، كما في بياض الشعر دلالة على الوهن والضعف .

ويقول في موضع آخر :

أَحَادِيثُ هُنَّ كَمِثْلِ الضَّرِيـ عِ آكِلُهُ أَبَدًا جَائِعُ[244] .

ويؤثر نهمه في تشبيهاته مرة أخرى حين يُشَبِّهُ أحاديث قرناء السوء بالضريع الذي لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي من جوع ، ثُمَّ يُؤَكِّدُ تفاهة حديثهم في الشطر الثاني ؛ حيث يشبه المستمع لكلامهم بالجائع الذي لا يشبع على الرغم من مداومته على الطعام ؛ فالطعام غير مشبع ، وكذلك أحاديثهم عديمة الفائدة .

ويلعب حبه للطعام مرة أخرى دورًا بارزًا في صورته التشبيهية في قوله :

عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَحِيلٌ فَلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّدِيقِ

كَذَاكَ الدَّاءُ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ مِنَ الأَشْيَاءِ تَحْلُو فِي الحُلُوقِ [245]

يُشَبِّهُ الإكثار من الأصدقاء بالإكثار مِمَّا يَحْلُو في الحُلُوق من أطعمة ؛ فكلاهما حُلْو المَذَاق والمعاشرة ، أما النتيجة فهي الداء لمن يستكثر من الأطعمة ، والندم لمن يستكثر من الأصدقاء ، لقد اعتمد على التشبيه التمثيلي الذي حرص فيه على النتيجة ، لا على إظهار التفاصيل بين طرفي التشبيه .

أما شؤم الرجل فجعله يرى حياته كالمأتم ، وقد استخدم التشبيه للتعبير عن ذلك في مدح آل وهب حين قال :

أَصْبَحْتُ فِي مَأْتَمٍ مِنْ سُوءِ رَأْيِكُمُ وَالنَّاسُ فِي عُرُسٍ مِنْكُمْ وَفِي عِيدِ [246]

ثانيًا : الاستعارة [247] :

والاستعارة أبلغ من التشبيه في كُلِّ حال ؛ حيث يذوب طَرَفَا التشبيه أحدهما في الآخر من باب الادعاء لا النقل ؛ لقوة وجه الشبه بين الطرفين ، وقد تأثرت الاستعارة في شعر ابن الرومي بالحالة النفسية الحزينة المسيطرة عليه ، كما نرى في قوله :

أَنَا ذَاكَ الذِي سَقَتْهُ يَدُ السُّقْـ مِ كُئُوسًا مِنَ المُرَارِ رِوَاءَ [248]

فقد شَبَّهَ المرض بالإنسان الذي يذيقه صنوف العذاب ، والشاهد في السُّقْيَا والكئوس ؛ فهي من سُبُل المتعة عند الناس ، ولكنها عند ابن الرومي وسيلة للتعذيب .

وكذلك قوله :

يَـغْـذُوهُ فِـي كُـلِّ أَنْـيٍ وَهْوَ يَـأْكُـلُـهُ وَيَحْتَسِي نُغَبًا مِنْهُ عَلَى نُغَبِ .

يُودِي بِحَالٍ فَحَالٍ مِنْ شَبِيبَتِهِ تَسَرُّبَ المَاءِ مِنْ مُسْتَأْنَفِ الكُتَبِ[249]

جعل الزمن يَتَفَنَّن في إيذائه ، ولا يترك وسـيلة لتحقيق ذلك الهدف ، ويمكر بدهاءٍ شـديد للقضـاء عليه ، ويقصـده وحدَهُ – دون غيره – بالمصـائب ، والشـاهد ألفاظ الأكل والاحتسـاء ، فهي ماثلة في مُخَيِّلَتِهِ طُول الوقت ؛ لذا يُكَرِّرُهَا في شعره بقصد أو بدون قصد .

وكذلك قوله :

أَذَاقَتْنِيَ الأَسْفَارُ مَا كَرَّهَ الغِنَى إِلَيَّ ، وَأَغْرَانِي بِرَفْضِ المَطَالِبِ [250]

جعل الأسفار إنسانًا يُذِيقه أنواع العذاب ، وغير خافٍ ما في قوله : (أذاقتني) من سخرية ؛ لأنه لا يذوق طعمًا حلوًا ، ولكنه يتجرع المُرّ ؛ مما يدل على شـدة معاناة الشـاعر ، وكأنه يتذوق هذه الأسفار بلسانه ، ويتأذَّى من مرارة طعمها .

وكذلك كان لتشاؤمه أثرٌ كبيرٌ في استعاراته التي وصف بها الشمس لحظة غروبها ، يقول :

إِذَا رَنَّقَتْ شَمْسُ الأَصِيلِ وَنَفَّضَتْ عَلَى الأُفُقِ الغَرْبِيِّ وَرْسًا مُذَعْذَعَا

وَوَدَّعَتِ الدُّنْيَا لِتَقْضِيَ نَحْبَهَا وَشَوَّلَ بَاقِي عُمْرِهَا فَتَشَعْشَعَا

وَلاحَظَتِ النُّوَّارَ وَهْيَ مَرِيضَةٌ وَقَدْ وَضَعَتْ خَدًّا إِلَى الأَرْضِ أَضْرَعَا[251]

يُثِيرُ منظر غروب الشـمس عند كثيرٍ من الشـعراء شـعورًا بالهدوء ، وجمال الطبيعة ، أما ابن الرومي المتشـائم فقد لَوَّنَ منظر الغروب بمداد مرضـه وتشـاؤمه ؛ فظهرت ألفاظ : وداع الدنيا وقضاء النحب ومرض النُّوَّار في وصفه للشمس لحظة الغروب ؛ فهي مريضة تَقْضِي نحبها .

وعلى الرغم من حزنه الشـديد على فقد أولاده الثلاثة إلا أن شـدة الحزن لم تنسـه أن يذكر الشراب في قوله :

يَا غَائِبًا عَنِّي بَعِيدَ الإِيَـابْ نَغَّصَنِي فَقْدُكَ بَرْدَ الشَّرَابْ [252]

ثالثًا : الكناية[253] :

وقد ظهر أثر مرضـه في بعض كناياته ؛ فإحسـاسـه بالفشـل الدائم جعلته يزهد كل شـيء حتى الأطايب من الأطعمة ، يقول :

وَمَنْ يَلْقَ مَـا لاقَيـتُ فِي كُـلِّ مُجْتَنًى مِنَ الشَّوكِ يَزْهَدْ فِي الثِّمَارِ الأَطَايِبِ[254]

كما أَثَّرَ شيبُهُ المُبَكِّر الدالّ على اختلال صحته في كناياته ، يقول في رثاء أمه :

فَقَدْنَاكِ فَاسْوَدَّتْ عَلَيكِ قُلُوبُنَا . وَحُقَّـتْ بِـأَنْ تَسْـوَدَّ وَابْيَضَّـتِ اللِّمَمِ

وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَبَاخَ ضِيَاؤُهَا نَهَارًا ، وَشَمْسُ الصَّحْوِ حَيرَى عَلَى القِمَمِ

وَأَجْدَبَتِ الأَرْضُ التِي كُنْتِ رَوضَةً عَلَيهَا ، وَأَبْدَتْ مَكْلَحًا بَعْدَ مُبْتَسَمِ[255]

لقد أصابه الهَلَع بعد موت أمه ، ومن ثم اسودَّ كُلّ شيء أمام عينيه ؛ فاسود قلبه لاحتراقه بنار الحزن ، وابيض شعره من هول المُصَاب ، وأظلمت الدنيا بعد إنارتها ، وأجدبت الأرض بعد إخصابها ؛ فالشاعر يرى كل شيء بمنظار حالته النفسية الحزينة .

نتائج البحث

من خلال دراستنا لابن الرومي وصلنا للنتائج الآتية :

1- إنه ضعيف الإيمان ، مهزوز العقيدة ، وأثبتنا ذلك بدلائل كثيرة وردت في ترجمته .

2- لم يكن شيعيًّا أو معتزليًّا ، بل كان – كما قال المعري – على مذهب غيره من الشعراء .

3- مات بسبب علله وأمراضه التي تكاثرت عليه ، وسبب موته هو مرض السكر الذي ظهرت كثير من أعراضه عليه .

4- هجا كُلَّ ممدوحيه ، وكل ممدوحي البحتري ، وهجا الدهر والناس والحياة ، وهجا أصحاب العاهات الجسدية ، وكان في كل ذلك مقلِّدًا للقدماء .

5- أخفق ابن الرومي في غرض المدح ، وأفحش في الهجاء ، وبرع في السخرية .

6- ارتبطت السخرية بالهجاء عنده ارتباطًا وثيقًا ، وقد استطاع أن يُوجِعَ مهجويه بسخريته أكثر من إيجاعهم بفُحْشِه ، وقد مسخهم مسخًا تامًّا ؛ فأخرجهم من زمرة البشر ، وقد ساعده على ذلك دقة ملاحظته وعبقريته وأصله اليوناني .

7- تعددت دوافع الهجاء عنده ؛ فمنها بخل ممدوحيه ، ومنها شـــعوره بالنقص ، واختلال أعصابه ، ونهمه ، وشهوانيته ، وتشاؤمه ، وسوء علاقاته بأهل عصره ، وكان من الممكن أن يبتعد عن هجائه التقليدي إذا صَـلُحَتْ علاقاته معهم ، أما الهجاء السـاخر فما كان ليبتعد عنه أو يتركه حتى لو تحسنت تلك العلاقات .

8- سَهُلَتْ ألفاظه في الهجاء ، كما استخدم ألفاظًا شائعة وأكسبها معنى أدبيًّا .

9- كَثُرَ إفحاشـه في صـوره وألفاظه ، وذلك لسـببين : الأول : شـعوره بالنقص ، والآخر : حضارة العصر ؛ لأن الإفحاش وليد الحضارة .

10- تكررت معاني الهجاء كثيرًا عنده ، ويرجع ذلك إلى سـببين : الأول : الوسـواس الذي أصابه ؛ وجعله يعتقد دائمًا أنه مُقَصِّرُ في أداء المعنى ؛ فيرجع إليه مرة أخرى ليستوفيه ، والآخر : مرض السكر الذي أصابه بضعف في الذاكرة ؛ جعله ينسى في بعض الأحيان أنه قال هذا المعنى ؛ فيرجع إليه ليقوله مرة ثانية دون أن يَدْرِي .

11- جعل المشـــبه به – في كثير من الأحيان – كلبًا ؛ لأنه يرى في الكلب كل المقابح والرذائل .

12- أَثَّرَ عليه المنطق كثيرًا في هجائه ؛ فظهر ذلك على هيئة مقدمات ونتائج .

13- تأثر بأصوله اليونانية في مسخ مهجويه .

14- كانت لنفسـيته المريضـة عظيم الأثر عليه في سـخريته من مجتمعه بكل ما فيه ومن فيه .

الهوامش

(1) هناك عدد من النقاد القدامى أغفلوا ذكر ابن الرومي تمامًا ، مع أنهم أشـــادوا بمن هو دونه رتبة ومنزلة ، مثل أبي الفرج الأصـفهاني في كتاب (الأغاني) ، وياقوت الحموي في (معجم الأدباء) ، وابن قتيبة الدينوري في (الشـعر والشعراء) .

إبراهيم عبد القادر المازني : حصاد الهشيم ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 1999م ، ص 251 .

(2) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد 214 ، دار الهلال ، القاهرة ، 1969م ، ص 86 .

(3) المرجع السابق ، ص 5 .

(4) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(5) المرجع السابق ، ص 87 .

(6) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ؛ رؤية نقدية تحليلية ، دار الكتب القومية ، الإسكندرية ، ط1 ، 1987م ، ص 80 .

(7) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 86 .

(8) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1993م ، 1 / 218 – 219 .

(9) المصدر السابق ، 396/1 .

(10) المصدر السابق ، 1 / 140 .

(11) المصدر السابق ، 3 / 1197 .

(12) ابن خلكان : وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1970 م ،3 / 361 .

- المرزباني : معجم الشعراء ، تصحيح د . ف . كرنكو ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، 1354هـ ، ص 289 .

- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت ،12 / 95 .

(13) آبَائِيَ الرُّومُ تُوفِيلٌ وَتُوفَلِسٌ ** وَلَمْ يَلِدْنِيَ رِبْعِيٌّ وَلا شَبَثُ .

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 401

(14) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 88 .

(15) المرزباني : معجم الشعراء ، ص 291.

(16) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 6 / 2354 .

(17) مثل قوله : وإِذَا مَا حَكَمْتُ وَالرُّومُ قَومِي ** فِي كَلامٍ مُعْرَّبٍ كُنْتُ عَدْلا

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 5 / 1921.

وقوله : مَولاهُمُ وَغُذِيَّ نِعْمَتَهُمْ ** وَالرُّوْمُ حِينَ تَنْصُنِي أَصْلِي

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 5 / 1960 .

(18) وهناك بعض الآراء مؤداها أن علله وأمراضه كانت سببًا في وفاته ، وممن ذهبوا إلى ذلك شوقي ضيف في كتابه (العصر العباسي الثاني)، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، 1973م ، ص 312 ، والعقاد في كتابه (ابن الرومي ؛ حياته من شعره) ، ص 274 - 275 ، وغيرهما .

(19) هجا أساتذة أبي الفرج الأصفهاني فأبى أن يترجم له ، محمد عبد الغنى حسن : ابن الرومي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1953م ، ص 18 .

(20) إبراهيم عبد القادر المازني : حصاد الهشيم ، ص 266 .

(21) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 6 / 2300 .

(22) المصدر السابق ، 6 / 2489.

(23) ومطلعها :

بُكَاؤُكُمَا يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لا يُجْدِي ** فَجُودَا ، فَقَدْ أَودَى نَظِيرُكُمَا عِنْدِي

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 624.

(24) يقول :

عَيْنَيَّ شُحَّا وَلا تَسُحَّا ** جَلَّ مُصَابِي عَنِ البُكَاءِ

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 79 .

(25) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 90 .

(26) كل التراجم التي تحدثت عن موت ابن الرومي لم تذكر أن أحدًا من أسرته كان يجالسه ، ومن ذلك : وفيات الأعيان ، العمدة ، رسالة الغفران .

(27) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 297 .
(28) تَدُلُّ أشعار كثيرة على معرفته بالمنطق ورجالاته خاصة أرسطو طاليس ؛ فنرى المنطق يسيطر على بعض أشعاره في تبريراته وتعليلاته .
(29) المعري : رسالة الغفران ، ومعها رسالة ابن القارح مفتاح فهمها ، تحقيق عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، 1977م ، ص 476 .
(30) ذُكِرَتْ بعض قصص إقباله على الطعام في : الحصري القيرواني : زَهْرُ الآداب وثَمَرُ الألباب ، شرح علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1372هـ - 1953م ، 295/2 .
(31) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 82 .
(32) قوله : فَظُلْمُ اللَّيَالِي أَنَّهُنَّ أَشَبْنَنِي ** لِعِشْرِينَ يَحْدُوهُنَّ حَولٌ مُجَرَّمُ
- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 5 / 02091
(33) قوله : أَيُّهَا الشَّيبُ لِمْ حَلَلْتَ بِرَأْسِي ** إِنَّمَا لِي عَشْرٌ وَعَشْرٌ وَبَنْجُ
- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 0505
(34) قوله : مِنْ أُنَاسٍ لا يُرْتَضَونَ عَبِيدًا ** وَهُمُ فِي مَرَاتِبِ الأَرْبَابِ
- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 0284
(35) يرى العقاد أنه كان مفطورًا على التدين .عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 229 ، وكذلك محمد عبد الغني حسن في كتابه (ابن الرومي) ، وما أراه إلا متأثرًا بقول العقاد .
(36) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 0482
(37) المصدر السابق ، 1 / 0128
(38) المصدر السابق ، 4 / 01546
(39) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 308 .
(40) المعري : رسالة الغفران ، ص 40.
(41) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 4/ 2040 .
(42) المصدر السابق ، 2/ 808 .
(43) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 141 ، 220 ، 225 .
- شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 309 .
- محمد عبد الغني حسن : ابن الرومي ، ص 31 .
- صالح اليظى : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 108 .
- علي علي صبح : عبقرية ابن الرومي ؛ شاعر العصر العباسي ، دار الأمانة ، القاهرة ، 1975م ، ص 155.
(44) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 492 .
(45) المصدر السابق ، 2 / 647 .
(46) المعري : رسالة الغفران ، ص 477.
(47) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 141 .
(48) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، مطبعة الموسوعات ، شركة طبع الكتب العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1317هـ ، ص 219 .
(49) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 75.
(50) المصدر السابق ، 1 / 328.
(51) ذهب إلى ذلك : ابن رشيق : العمدة ؛ في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401هـ - 1981م ، 72/1 .

- والحصري القيرواني : زَهْرُ الآداب وثَمَرُ الألباب ، ص 295 .
- والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، 12 / 26 .
- والمرزباني : معجم الشعراء ، ص 289 .

وتابعهم في هذا الرأي من المُحْدَثِين : محمد عبد الغني حسن : ابن الرومي ، ص 34 .

- وصالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 88 .

(52) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 312 .

- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص201 .

(53) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 274 - 275 .

(54) قوله :

يَقُولُ القَائِلُونَ: ضَوَيتَ جِدًّا ** وَلَمْ تُنْضِجْكَ أَرْحَامُ النِّسَاءِ

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 104.

(55) علي علي صبح : البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، 1996م ، ص 167.

(56) علي شلق : ابن الرومي في الصورة والوجود ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ - 1982م ، ص 74 .

(57) المرجع السابق ، ص 77 .

(58) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2648/6 .

(59) المصدر السابق ، 2419/6 .

(60) المصدر السابق ، 1399/4 .

(61) المصدر السابق ، 549/2.

(62) علي علي صبح : عبقرية ابن الرومي ؛ شاعر العصر العباسي ، دار الأمانة ، القاهرة ، 1975م ، ص 90 .

(63) المرجع السابق ، ص 197 .

(64) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 0231

(65) المصدر السابق ، 4 / 1698

(66) المصدر السابق ، 1 /139- 140، وراجع أيضًا 1921/5 .

(67) المصدر السابق ، 1/ 398 .

(68) المصدر السابق ، 4 / 1678 – 1679 .

(69) المصدر السابق ، 2421/6 .

(70) المصدر السابق ، 1 / 0140

(71) المصدر السابق ، 139/1 – 140 .

(72) المصدر السابق ، 3 / 1068 - 01069

(73)علي علي صبح : عبقرية ابن الرومي ، ص174 .

(74) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 /406 – 407 .

(75) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 38 .

(76) علي شلق : ابن الرومي في الصورة والوجود ، ص 49 .

(77) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 0140

(78) المصدر السابق ، 2 / 0586

(79) المصدر السابق ، 2 / 0574

(80) المصدر السابق ، 2 / 629 – 630 .
(81) المصدر السابق ، 4 / 01587
(82) المصدر السابق ، 2 / 0586
(83) المصدر السابق ، 2 / 0574
(84) المصدر السابق ، 2 / 0587
(85) المصدر السابق ، 4 / 01438
(86) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 275 .
(87) أيمن الحسيني : رفيق خائن ووحش كاسر اسمه مرض السكر ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1990م ، ص 115 .
(88) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 350 .
(89) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 275 .
(90) قال في الصلع :
عَزَمْتُ عَلَى لُبْسِ العِمَامَةِ حِيلَةً ** لِتَسْتُرَ مَا جَرَّتْ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَعْ
- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 4 / 1463.
(91) المصدر السابق ، 1 / 218
(92) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 185 .
(93) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 0711
(94) المصدر السابق ، 2 / 0712
(95) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 38.
(96) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1070/3 - 1071.
(97) المصدر السابق ، 761/2 .
(98) محمد عثمان نجاتي : الحديث النبوي وعلم النفس ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 1989م ، ص 189 .
(99) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 0282
(100) المصدر السابق ، 1 / 0284
(101) محمد عثمان نجاتي : الحديث النبوي وعلم النفس ، ص 189.
(102) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2/ 778 .
(103) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 151.
(104) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ،2 / 0705
(105) المصدر السابق ، 2/ 700 .
(106) المصدر السابق ، 4 / 1380 .
(107) المصدر السابق ، 1 / 395 .
(108) انظر شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 201 - 202 .
(109) علي علي صبح : عبقرية ابن الرومي ، ص 182 .
(110) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 3 / 1196 - 1197 .
(111) انتصار يونس : السلوك الإنساني ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1989م ، ص 394 .
(112) مصطفى سويف : العبقرية في الفن ، مطبوعات الجديد العدد (17) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1973م ، ص 16 .
(113) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 76 .

(114) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(115) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 330 .

(116) في الواحد والعشـرين ، وسـنّ البلوغ الحقيقي في الرابعة عشـرة بالنسـبة للرجال ، وإذا قلنا إن هناك أثرًا لليونانية التي تدل على نعومته ، فمعنى ذلك أن سنّ البلوغ عنده ستتأخر بعض الشيء إلى الخامسة عشرة .

(117) حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1985م ، ص 118 .

(118) لأن النساء قد أعرضن عنه لقبح وجهه وضعفه ، يقول :

وَلَذَّتْ أَحَادِيثِي الرِّجَالُ وَأَعْـرَضَتْ ** سُلَيمَى وَرَيَّا عَنْ حَدِيثِي وَمَهْدَدِ

وَبُدِّلَ إِعْجَابُ الغَـــوَانِي تَعَجُّبًـا ** فَهُنَّ رَوَانٍ يَعْتَبِـــرْنَ وَصُدَّدُ

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 0586

ويقول أيضاً في نفس المعنى :

شُغِفْتُ بِالخُرَّدِ الحِسَانِ وَمَا ** يَصْلُحُ وَجْهِي إِلاَّ لِذِي وَرَعِ

كَي يَعْبُدَ اللهُ فِي الفَلاةِ وَلا ** يَشْهَدُ فِيهِ مَشَاهِـدَ الجُمَعِ

- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 4/ 1470

(119) مصطفى سويف :الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1981م ، ص 54

(120) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 3 / 1228 - 1229 .

(121) حامد عبد القادر : دراسات في علم النفس الأدبي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1949م ، ص25.

(122) سيجموند فرويد : حياتي والتحليل النفسي ، ترجمة مصطفى زيور ، عبد المنعم المليجي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1994م ، ص97 .

(123) الخيال والتمني : حيلة دفاعية يلجأ بعض الناس إليها عندما لا يستطيعون المواجهة ؛ فيهربون من الأحداث المحيطة بهم ، والمحبطة لهم ، متوهمين الحلّ ، ومن ثَمَّ ينسحبون من الحياة الفعلية إلى عالم خيالي يستطيعون فيه تحقيق ما لم يستطيعوا أن يحققوه في الواقع .

- راجع انتصار يونس : السلوك الإنساني ، ص346

(124) راجع الحيل الدفاعية عند :

- انتصار يونس : السلوك الإنساني ، ص344 - 351 .

- سعد الأمارة : (أساليب التعامل مع الضغوط ؛ حدود المنهج والأساليب)، مجلة النبأ ، السعودية ، العدد 55، 1421هـ – 2001م .

(125) رينيه ويليك ، أوستن وارين : نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2 ، 1981م ، ص52 .

(126) الحلم عند فريد هو تحقيق مقنع لرغبة مقموعة أو مكبوتة ، وانبعاث من غير تصريح لرغبات وأمانٍ مقموعة ، تحت ملامح وأسماء مزيفة .

- راجع سيجموند فرويد : تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفون ، مراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 2004م ، ص183 .

(127) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 213.

(128) المصدر السابق ، 1/ 216.

(129) المصدر السابق ، 1 / 217.

(130) المصدر السابق ، 1 / 216.

(131) المصدر السابق ، 4 / 1380 – 1382 .

(132)عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 208 .
(133) الحصري القيرواني : زهر الآداب ، 1/ 485 .
(134) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2/ 488 - 489 .
(135) المصدر السابق ، 4 / 2453 – 2454 .
(136) الحصري القيرواني : زهر الآداب ، 1 / 481 - 482 .
(137) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 208 .
(138) علي شلق : ابن الرومي في الصورة والوجود ، ص 99 – 100 .
(139) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2/ 586 .
(140) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(141) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ؛ ص 5 .
(142) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 213/1 .
(143) المصدر السابق ، 1/ 216 .
(144) المازني : حصاد الهشيم ، ص 286 .
(145) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 216/1 .
(146) المصدر السابق ، 1421/4 .
(147) المصدر السابق ، 2 / 569 .
(148) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص 305 .
(149) أرسطو : فن الشعر ، تحقيق شكري عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1993م ، ص 38 بتصرف .
(150) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص203.
(151) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 75.
(152) المصدر السابق ، 1/ 96.
(153) المصدر السابق ، 270/1.
(154) المصدر السابق ، 2/ 743.
(155) المصدر السابق ، 1/ 98 .
(156) المصدر السابق ، 3/ 1051.
(157) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص234.
(158) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1109/3.
(159) المصدر السابق ، 6/ 2536 .
(160) المصدر السابق ، 1/ 282.
(161) المصدر السابق ، 1/ 100.
(162) المصدر السابق ، 6/ 2548.
(163) المصدر السابق ، 3/ 1228.
(164) المصدر السابق ، 3/ 769.
(165) المصدر السابق ، 2/ 815.
(166) المصدر السابق ، 2/ 690.
(167) المصدر السابق ، 4/ 1463.

(168) المتنبي : ديوان أبي الطيب المتنبي ؛ بشرح أبي البقاء الكعبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د . ت ، 275/2 .

(169) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 203/1- 204.

(170) المصدر السابق ، 1 / 135 .

(171) المصدر السابق ، 4 / 1452 .

(172) المصدر السابق ، 4/ 1532.

(173) المصدر السابق ، 4/ 1462.

(174) المصدر السابق ، 4/ 1472 .

(175) قحطان رشـــيد التميمي : اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، دار المســـيرة ، بيروت ، د .ت ، ص 361

(176) محمد النويهي : ثقافة الناقد الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـــر ، القاهرة ، ط1 ، 1949م ، ص 333.

(177) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 3/ 1217.

(178) المصدر السابق ، 5/ 2003.

(179) عندما غضب الإله جوبتير على ليكاوون لتجبره وتحديه له مسخه ذئبًا ، رأسه فقط رأس ذئب ، وكسا جلده شعرًا ، ولكن قوامه قوام آدمي ، وتحول أخوه فايتون إلى أشجار، وتحول كاليستو إلى دب ، ومُسِخ كورنيسب غرابًا ، ومُسِخ أوكيري فرسًا .

- راجع أوفيد : مسخ الكائنات ، ترجمه وقدم له ثروت عكاشة ، راجعه على الأصل اللاتيني مجدي وهبه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1971م ، ص 64 – 65 ،97 ، 100، 104 .

(180) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 270/1.

(181) المصدر السابق ، 1/ 386 .

(182) المصدر السابق ، 2/ 928 .

(183) المصدر السابق ،1550/4 .

(184) المصدر السابق ، 927/3 - 928.

(185) عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط1، 1991م ، ص 129 .

(186) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1592/4.

(187) المصدر السابق ، 280/1.

(188) المصدر السابق ، 1470/4.

(189) المصدر السابق ، 534/2.

(190) المصدر السابق ، 641/2.

(191) المصدر السابق ، 290/1.

(192) وأعتقد أنه أخذ هذا المعنى من قول حسان بن ثابت :

لا عَيبَ فِي القَومِ مِنْ طُولٍ وَلا عِظَمٍ ** جِسْمُ البِغَـالِ وَأَحْـلامُ العَصَافِيرِ

- حسان بـن ثابت : ديـوان حسـان بن ثـابت ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، دار المعـارف ، القـاهـرة ، 1973 م ، ص 178 .

(193) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 412/1.

(194) حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ، ص 119.
(195) المازني : حصاد الهشيم ، ص 269 .
(196) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(197) حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ، ص 119.
(198) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(199) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 109/1.
(200) المصدر السابق ، 757/2.
(201) المصدر السابق ، 749/2.
(202) المصدر السابق ، 1/ 81.
(203) المصدر السابق ، 87/1.
(204) المصدر السابق ، 693/2.
(205) المصدر السابق ، 909/3.
(206) المصدر السابق ، 1070/3 - 1071.
(207) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي، ص82.
(208) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 603/2- 604.
(209) حلمي المليجي : علم النفس المعاصر، ص93.
(210) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1421/4 .
(211) حلمي المليجي : علم النفس المعاصر ، ص94.
(212) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(213) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 383/1.
(214) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص238.
(215) المرجع السابق ، ص141.
(216) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1/ 334 .
(217) المصدر السابق ، 2/ 584 - 585 .
(218) المصدر السابق ، 91/1 .
(219) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 119 .
(220) عباس محمود العقاد : ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، ص 235 .
(221) شـوقي ضـيف : البحث الأدبي ؛ طبيعته ، مناهجه ، أصـوله ، مصـادره ، دار المعارف ، القاهرة ، ط7 ، 1965م ، ص 110 – 111 .
(222) المرجع السابق ، ص 111 .
(223) إيليا سليم الحاوي : ابن الرومي ؛ فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص 147 .
(224) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 3/ 1047 .
(225) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1386هـ- 1966م ، ص 54 .
(226) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 2 / 586 .
(227) المصدر السابق ، 4 / 1551
(228) المصدر السابق ، 1 / 231 .
(229) المصدر السابق ، 4 / 1698 .

(230) المصدر السابق ، 1 / 133 .
(231) المصدر السابق ، 1 / 128 .
(232) يُسَبِّبُ مرض السكر تَصَلُّب الشرايين المغذية للمخ ، ويؤدي إلى ضعف وصول الدم إليه ؛ فيُخْفِق المخ في القيام بوظيفته ؛ فتكون النتيجة ضعف الذاكرة خاصة للأحداث القريبة .
- أيمن الحسيني : رفيق خائن ووحش كاسر اسمه مرض السكر ، ص 101 بتصرف .
(233) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 118 .
(234) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 110 .
(235) المصدر السابق ، 5 / 1945 .
(236) صالح اليظي : أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ، ص 21 .
(237) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 5 / 1855 - 1856 .
(238) المصدر السابق ، 4 / 1562 .
(239) المصدر السابق ، 6 / 2485- 2486 .
(240) المصدر السابق ، 2/ 497- 498.
(241) التشبيه اصطلاحًا : « إلحاق أمر (المشبه) بأمر (المشبه به) في معنى مشترك (وجه الشبه) بأداة (الكاف وكأن وما في معناهما) لغرض (فائدة) ».
- أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة ؛ المعاني والبيان والبديع ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1986م ، ص 213.
(242) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 67/1 .
(243) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(244) المصدر السابق ، 1489/4 .
(245) المصدر السابق ، 1698/4 .
(246) المصدر السابق ، 2 / 696 .
(247) الاستعارة « تشبيه حُذِفَ أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه ، لكنها أبلغ من التشبيه ؛ لأننا مهما بالغنا في التشبيه فلا بُدَّ من ذكر الطرفين ، وهذا اعتراف بتباينهما ، وأن العلاقة بينهما ليست إلا التشابه والتداني فلا تصل حد الاتحاد ؛ إذ جعلك لكل منهما اسما يمتاز به دليل على عدم امتزاجهما واتحادهما ، بخلاف الاستعارة فإن فيها دعوى الاتحاد والامتزاج » .
- أحمد مصطفى المراغي : علوم البلاغة ، ص260.
(248) المصدر السابق ، 1 / 91 .
(249) المصدر السابق ، 1 / 190 .
(250) المصدر السابق ، 1 / 213 .
(251) المصدر السابق ، 4 / 1475 .
(252) المصدر السابق ، 1 / 348 .
(253) عرَّفها عبد القاهر الجرجاني بقوله : « الكناية أن يريد المتكلمُ إثباتَ معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردْفه في الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم : (هو طويل النجاد) ، يريدون طويل القامة ، و(كثير رماد القدر) ، يعنون كثير القرى ، وفى المرأة (نؤوم الضحى) ، والمراد أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا في هذا كله – كما ترى – معنًى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنًى آخر من شأنه أن يَرْدَفَه في الوجود ، وأن يكون إذا

كان ، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القِدْر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ، رَدِفَ ذلك أن تنام إلى الضحى؟ ».

- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1989م ، ص66.

(254) ابن الرومي : ديوان ابن الرومي ، 1 / 213 .

(255) المصدر السابق ، 2310/6 .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

*** ابن الرومي– أبو الحسن علي بن العباس بن جُرَيج (ت283هـ):**

1– ديوان ابن الرومي ، تحقيق حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1993م .

*** ابن خَلِّكَان – أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر(ت681هـ) :**
2- وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحســـان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1970 م .
*** ابن رشيق القيرواني – أبو على الحسن (ت456هـ):**
3- العمدة ؛ فــي محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1401هـ- 1981م .
*** ابن الطقطقي – محمد بن علي بن طباطبا :**
4- الفخري في الآداب الســلطانية والدول الإســلامية ، مطبعة الموســوعات ، شــركة طبع الكتب العربية ، القاهرة ، ط1 ، 1317هـ .
*** عبد القاهر الجرجانى – أبو بكر بن عبد الرحمن (ت471هـ):**
5- أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المــدني ، القاهرة ، دار المدني ، جدة ، ط1، 1991م .
6- دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شـــاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2، 1989م .
*** حسان بن ثابت :**
7- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ، القاهرة ، 1973 م .
*** الحصري القيرواني – أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري (ت 413هـ) :**
8- زَهْرُ الآداب وثَمَرُ الألباب ، شـــرح علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1372هـ - 1953م .
*** الخطيب البغدادي – أبو بكر أحمد بن علي (ت 463هـ) :**
9- تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت .
*** أبو العلاء المعري- أحمد بن عبد الله بن سليمان (ت449هـ) :**
10- رســالة الغفران ، ومعها رســالة ابن القارح مفتاح فهمها ، تحقيق عائشــة عبد الرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، 1977م .
*** القاضي الجرجاني – أبو الحسن علي بن عبد العزيز (ت392هـ):**
11- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1386هـ- 1966م .
*** المتنبي – أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت354هـ):**
12- ديوان أبي الطيب المتنبي ؛ بشرح أبي البقاء الكعبري ، المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د . ت .
*** المَرْزُباني – أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت384هـ) :**
13- معجم الشعراء ، تصحيح د . ف . كرنكو ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، 1354هـ .

ثانيًا : المراجع العربية :

*** إبراهيم عبد القادر المازني :**

14- حصاد الهشيم ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 1999م .
* أحمد مصطفى المراغي :
15- علوم البلاغة ؛ المعاني والبيان والبديع ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1986م .
* **انتصار يونس :**
16- السلوك الإنساني ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1989م .
* **إيليا سليم الحاوي :**
17- ابن الرومى ؛ فنه ونفسيته من خلال شعره ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1980 م .
* **أيمن الحسيني :**
18- رفيق خائن ووحش كاسر اسمه مرض السكر ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1990م .
* **حامد عبد القادر :**
19- دراسات في علم النفس الأدبي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1949م .
* **حلمي المليجي :**
20- علم النفس المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1985م .
* **شوقي ضيف :**
21- العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، 1973م .
22- البحث الأدبي ؛ طبيعته ، مناهجه ، أصـــوله ، مصـــادره ، دار المعارف ، القاهرة ، ط7 ، 1965م .
* **صالح حسن اليظي :**
23- أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي ؛ رؤية نقدية تحليلية ، دار الكتب القومية ، الإسكندرية ، ط1 ، 1987م .
* **عباس محمود العقاد :**
24- ابن الرومي ؛ حياته من شعره ، سلسلة كتاب الهلال ، العدد 214 ، دار الهلال ، القاهرة ، 1969م .
* **علي علي صبح :**
25- البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، 1996م .
26- عبقرية ابن الرومي ؛ شاعر العصر العباسي ، دار الأمانة ، القاهرة ، 1975م .
* **علي شلق :**
27- ابن الرومي في الصورة والوجود ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ - 1982م .
* **قحطان رشيد التميمي :**
28- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري ، دار المسيرة ، بيروت ، د . ت .
* **محمد عبد الغنى حسن :**
29- ابن الرومي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1953م .

* **محمد عثمان نجاتي :**
30- الحديث النبوي وعلم النفس ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 1989م .
* **محمد النويهي :**
31- ثقافة الناقد الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1949م .
* **مصطفى سويف :**
32- العبقرية في الفن ، مطبوعات الجديد العدد (17) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1973م .
33- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1981م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية المترجمة :

* **أرسطو طاليس :**
34- فن الشعر ، تحقيق شكري عياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1993م .
* **أوفيد :**
35- مسخ الكائنات ، ترجمه وقدم له ثروت عكاشة ، راجعه على الأصل اللاتيني مجدي وهبه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 1971م .
* **فرويد ، سيجموند :**
36- حياتي والتحليل النفسي ، ترجمة مصطفى زيور ، عبد المنعم المليجي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 ، 1994م .
37- تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفون ، مراجعة مصطفى زيور ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 2004م .
* **ويليك ، رينيه ووارين ، أوستن :**
38- نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2 ، 1981م .

رابعًا : الدوريات :

* **سعد الأمارة :**
39- أساليب التعامل مع الضغوط ؛ حدود المنهج والأساليب ، مجلة النبأ ، السعودية ، العدد 55، 1421هـ - 2001م .